الشرح المختصر
على
المنظومة الميمية

للشيخ العلامة

حافظ بن أحمد بن علي الحكمي

١٣٤٢ هـ - ت ١٣٧٧ هـ

شرحها وعلق عليها

أبو لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

دار الإمام الشافعي
للطباعة والنشر والتوزيع
اليمن - عدن

الشَّرحُ المختصرُ

على

المنظومة الميمية

للشيخ العلامة

حافظ بن أحمد بن علي الحكمي

١٣٤٢هـ ت ١٣٧٧هـ

شرحها وعلق عليها

أبو لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

غفر الله له وعفا عنه ولوالديه

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الصادق الأمين، من بعثه الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد طلب مني بعض إخواننا الأفاضل أن أختصر من شرحي على المنظومة الميمية شرحًا مختصرا فأجبتهم إلى ذلك، فأسأل الله أن يجعل فيه البركة والقبول، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يقيني ووالدي وأهلي وذريتي والمسلمين من عذاب القبر وعذاب النار.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

عفا الله عنه وغفر له ولوالدين

[يوم السبت ٣ من ذي القعدة لعام ١٤٤٥ من الهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام]

هو الشيخ العلامة المحدث: هو حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أربع وعشرين خلت من رمضان لعام (١٣٤٢هـ) بقرية السَّلام، إحدى قُرى الحكميين في جنوب مدينة جازان، وله مؤلفاتٌ كثيرة منها: سلم الوصول، إلى علم الأصول، في توحيد الله واتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرجوزة في أصول الدين، وهي أول ما ألف، ومعارج القبول، بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، وأعلام السنة المنشورة، لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة وهو على طريقة السؤال والجواب، ومنظومة اللؤلؤ المكنون، في أحوال الأسانيد والمتون، والمنظومة الميمية، في الوصايا والآداب العلمية وغيرها من الكتب النافعة.

وتوفي سنة ١٣٧٧هـ وكان عمره آنذاك خمساً وثلاثين سنة ونحو ثلاثة أشهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١	الحَمْـــدُ لله ربِّ العـــالمينَ عَـــلى	آلائه وهْوَ أهـلُ الحَمْـدِ والـنِّعَم
٢	ذي الملكِ والملكوتِ الواحِدِ الصمَدِ الـ	ـبَرِّ المهيْمِن مُبـدِي الخلْـقِ مِـن عَـدَم

الشرح

قوله: (الحمد)، هو إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه [(١)] . ا هـ

وقوله: «لله» اللام للاختصاص والاستحقاق والله اسم للرب سبحانه وتعالى ولا يسمى به غيره وهو الاسم الأعظم، ومعناه المألوه أي: المعبود حباً وتعظيماً.

والرب: هو الخالق الرزاق المدبر أمورهم.

و«العالمين» جمع عالَم وهو كل ما سوى الله، وسموا بذلك ؛ لأنهم علمٌ على خالقهم سبحانه وتعالى.

وقوله: «على آلائه» أي: نحمد الله على نعمه فتذكر نعم الله وشكره عليها من أسباب الفلاح **قال تعالى**: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٦٩﴾[الأعراف:٦٩].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٢ / ٣٦) و (٨ / ٣٧٨) و البدائع (٢ / ٩٢).

وقوله: «وهو أهل الحمد والنعم» أي: الله سبحانه هو الذي يستحق أن يُحمد لأنه أهلٌ لأن يحمد فقد جاء في " صحيح مسلم " برقم (٤٧٧) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد»، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، في مسلم أيضًا برقم (٤٧٨).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢ ذي الملكِ والملكوتِ الواحِدِ الصمَدِ الـ	ـبَرِّ المهيْمِنِ مُبـدِي الخلْـقِ مِـن عَـدَمِ

الشرح

وقوله: «ذي الملك» أي: صاحب الملك، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦]، وقد بين سبحانه أنه المتفردُ بالملك لا شريك له في ملكه، قال سبحانه: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء:١١١].

وقوله: «والملكوت» أي: وصاحب الملكوت قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٨ . ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس:٨٣]، وجاء عن عوف بن مالك الأشجعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قمت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف

فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» (١).

وأصل ملكوت: ملكٌ زيدت الواو والتاء للمبالغة مثل: جبروت ورهبوت ورغبوت على وزن فعلوت من الجبر والرهبة والرغبة.

وقوله: «الواحد» هو اسم من أسماء الله تعالى قال سبحانه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف:٣٩] وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ١٦﴾ [الرعد:١٦]، **وغيرها من الآيات**، والواحد هو المتفرد في ذاته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وقوله: «الصَّمَد» هو اسم من أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾ [الإخلاص:٢]، وهو الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم وأمورهم.

وقوله: «البر» هو اسم من أسماء الله تعالى، **قال تعالى**: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور:٢٨]، **وهو** واسع الإحسان والرحمة والعطاء والجود.

وقوله: «المهيمن» هو اسم من أسماء الله تعالى، **قال تعالى**: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر:٢٣].

---

(١) رواه أبو داود برقم: (٨٧٣)، وأحمد برقم (٢٣٩٨٠) وغيرهما، وهو حديث حسن وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيح، وضعيف سنن أبي داود وحسنه العلامة الوادعي ﷺ في الصحيح المسند برقم (١٠٣١).

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" عند الآية: المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور الذي أحاط بكل شيء علما. اهـ

وقوله: «مبدي الخلق من عدم» كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ "تفسيره": يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يُذْكَر لحقارته وضعفه. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣	مَنْ عَلَّمَ النَاسَ ما لا يعْلمونَ وبالْـ	ـبَيانِ أنْطَقَهُمْ والخَطِّ بالقَلَم

الشرح

قوله: «من علم الناس ما لا يعلمون» أي: الذي علَّم الناس ما لا يعلمون قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:٣، ٥]، فالله تعالى هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم فكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله كما قال تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل:٧٨]، فعَلَمَ الناس سواء كان في أمور الدين أو الدنيا واختص المسلمين بالعلم النافع أما الكافر فكما قال الله: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم:٧].

قلْتُ: فهم يعلمون لكن ظاهرًا من الحياة الدنيا ولو علموا بباطن الدنيا وحقيقتها لأسلموا ودخلوا في دين الله تبارك وتعالى.

وقوله: «وبالبيان أنطقهم والخط بالقلم» قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١. ٤]، والمراد باليان هو الإفصاح عما في الضمير.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤	ثـمَّ الصـلاةُ عـلى المُخْتـارِ أكـرَم مَبْـ	ـعُوثٍ بِخـيْرِ هُـدًى في أفضَـل الأُمَـم

الشرح

لما انتهى من حمد الله تعالى شرع بذكر الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأصحُ ما قيل في صلاة الله على رسوله، هو ثناءه عليه عند الملائكة، وقد قرر هذا القول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونصره في "جلاء الأفهام" ص (١٥٩) فليُراجع.

وقد أفرد هنا الصلاة دون السلام والأفضل هو الجمع بين الصلاة والسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦].

قال ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " مفتاح الحصن ": وأما الجمع بين الصلاة والسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو الأفضل والأولى والأكمل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب:٥٦]، ولو اقتصر على أحدهما جاز من غير كراهة. ا هـ

وقوله: «على المختار» أي: الذي اختاره الله من بني هاشم واختار بني هاشم من قريش واختار قريشاً من العرب واختار العرب من سائر المخلوقات وهو وصف للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس اسمًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥] وجاء عن عوف بن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وأنا النبي المصطفى** [(١)] ».

قوله: «أكرم مبعوث» أي: أفضلُ وأشرفُ رسولٍ أُرسلَ لحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة** [(٢)] »، وجاء في مسلم أيضاً برقم (٢٢٧٨) بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»، وجاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** [(٣)] ».

وقوله: «مبعوث» أي: مُرْسَل. **وقوله: «بخير هدي»** وهي ملةُ الإسلام التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] وهو الدين الذي لا يقبل الله سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

قوله: «في أفضل الأمم» فأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أفضل الأمم قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

---

(١) رواه أحمد برقم (٢٣٩٨٤) وسنده صحيح.

(٢) رواه البخاري برقم (٤٧١٢) ومسلم برقم (١٩٤) وجاء عند أحمد برقم (١٢٤٦٩) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد برقم (١٠٩٨٧) وهو حديث صحيح.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم. اهـ

وقال أيضًا: وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السبْق إلى الخيرات بنبيها محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل.

فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه. اهـ

قلتُ: جاء عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء»** وذكر منها: **« وجعلت أمتي خير الأمم** [(١)] **»**.

وجاء عن معاوية بن حيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله عز وجل»** وفي لفظ: **«أنتم خيرها** [(٢)] **»**. وجاء عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول

---

(١) رواه أحمد برقم (٧٦٣)، وهو حديث حسن وقد حسنه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الصحيحة" برقم (٣٩٣٩).

(٢) رواه أحمد برقم **(٢٠٠١٥)** وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المشكاة برقم: **(٦٢٩٤)** والعلامة الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الصحيح المسند" برقم: **(١١١٥)**.

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم [١] ».

ومن خيرية هذه الأمة: أنها أكثرُ الأمم استجابة لنبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولهذا جاء في صحيح مسلم برقم (١٩٦) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعًا».

ومن خيرية هذه الأمة: ما جاء في البخاري برقم (٤٥٥٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام».

ومن خيرية هذه الأمة: ما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبة نحوًا من أربعين رجلاً، فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» قال: قلنا: نعم، فقال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟» فقلنا: نعم، فقال: «والذي نفسي بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

---

(١) رواه الترمذي برقم: (٢٥٤٦)، وهو حديث صحيح وقد صحح الحديث العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح الجامع" برقم (٢٥٢٦) والعلامة الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيح المسند" برقم(١٤٩).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥	والآلِ والصَّحْبِ والأتْبَاعِ قاطِبَةً	والتَّابِعينَ بإحْسَانٍ لِمَنْهَجِهِم

الشرح

قوله: «والآل»: الآل قيل: هم من حرمت عليهم الصدقة بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وقيل: آله: هم أزواجه وذريته خاصة، وقيل: أتباعه إلى يوم القيامة. ورجح ابن القيم القول الأول، ثم بعده في القوة القول الثاني [(١)].

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الآل تطلق على معان، وأصح ما تقول فيها: إنها إن قرنت بالأتباع فالمراد بها المؤمنون من قرابته، وذلك مثل أن نقول: وآله وأتباعه؛ وذلك لأن العطف يقتضي المغايرة، وإذا ذكرت وحدها ولم تقرن بالأتباع، فالمراد بآله أتباعه على دينه، ويشمل المؤمنين من قرابته، وهذا هو أصح ما قيل في الآل [(٢)]. اهـ وما رجحه ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الصحيح إن شاء اللهُ تعالى، والله أعلم.

وقوله: «والصحب» اسم جمع لـ **«صاحبي»** وليس جمعًا؛ لأن صحب جمع صاحب بمعنى صحابي كركب جمع راكب والصحابي هو من لقي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به ومات على ذلك، ولو تخللته ردة على الصحيح.

---

(١) راجع " جلاء الأفهام " ص (١٠٤).

(٢) شرح العقيدة السفّارينية (٥٨).

وقوله: «والأتباع» جمع تابعي وهو من لقي الصحابي حال كونه مؤمناً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومات على ذلك.

وقوله: «قاطبة» أي: جميعاً وهي من ألفاظ العموم.

وقوله: «والتابعين بإحسان لنهجهم» أي: ومن تَبِعَهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك بالقول [(١)] . اهـ

وكل خير في اتِّبَاع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

٦	مـا لاحَ نَجْـمٌ ومـا شـمسُ الضُّـحى طَلَعَـتْ	وعَـدُّ أنْفـاسِ مـا في الكـوْنِ مِـن نَسَـم

الشرح

قوله: «ما لاح نجم» يعني: ما ظهر ولَـمَعَ.

وقوله: «وما شمس الضحى طلعت» خصت شمس الضحى دون شمس أول النهار وآخره لأنه أقوى إضاءة ولهذا يقولون كالشمس في رايعة النهار.

---

(١) [راجع الشريعة للآجري (١/٤٤٥) وجامع بيان العلم وفضله (٢/١٠٧١)].

وقوله: «وعد أنفاس ما في الكون من نسم» أي: وعدد ما في هذا الكون من نفس منفوسة وهذا فيه شدة المبالغة في الكثرة في الصلاة على النبي ﷺ لأن النبي ﷺ قال: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً». رواه مسلم برقم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وبرقم (٣٨٤) عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وجاء عن أنس رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «من صلّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات [١] ».

وقوله: «من نَسَم» جمعُ نَسَمَة والنسمة هي: كل ذي روح، قال النبي ﷺ : «من أعتق رقبةً مسلمةً، أعتق اللهُ بكل عضو منه عضواً من النار، حتى فرجه بفرجه [٢] ».

---

(١) رواه النسائي برقم (١٢٩٧) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح وضعيف سنن النسائي والعلامة الوادعي رحمه الله في الصحيح المسند برقم (٨٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٦٧١٥) ومسلم برقم (١٥٠٩) عن أبي هريرة رحمه الله .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧	وبَعْـــدُ مَـــنْ يُـــرِدِ اللهُ العظـــيمُ بِـــهِ	خـــيْرًا يُفَقِّهَـــهُ فِي دِينـــهِ القِـــيَم

الشرح

قوله: «وَبَعْدُ» معناها: مهما يكن من شيء بعد. ا هـ أي: بعد حمد الله والصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وأوردت بهذا اللفظ (وبعد) من أجل القافية، والسنة أن يقال: «**أما بعد**»؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كثيرًا ما يأتي بها في خطبه وكتاباته، كما في حديث عمرو بن تغلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وفيه أنه قال: «**أما بعد**» [(١)] ».

وجاء عن المسور بن مخرمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ، وجاء أيضًا عن أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكلها في صحيح البخاري، وقد رويت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر من ثلاثين صحابياً.

قلتُ: لم يثبت بسندٍ صحيحٍ من قالها ابتداءً، وليس هناك كبيرُ فائدة في معرفة من قالها أولاً، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري رقم (٩٢٣).

قوله:

مَـــنْ يُـــرِدِ اللهُ العظـــيمُ بِـــهِ	خـــيْرًا يُفَقِّهَـــهُ فِي دِينـــهِ القِـــيَم

ويدل على هذا حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من يرد اللهُ به خيرًا يفقهه في الدين**» [(١)]. وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [(٢)].

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن ماجه برقم (٢٢٠) ولكنه حديثٌ معلٌّ وقد ذكره الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ في أحاديث معلة برقم (٤٥١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرًا، فيكون التفقه في الدين فرضًا، **والتفقه في الدين**: معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها السمعية [(٣)]. ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيراً كما أن من أراد به خيراً فقهه في دينه ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرًا [(٤)]. ا هـ

---

(١) رواه البخاري برقم(٧١) ومسلم برقم (١٠٣٧).

(٢) عند الترمذي برقم (٢٦٤٥) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح وضعيف سنن النسائي" والعلامة الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيح المسند" برقم: (٦٢١).

(٣) [مجموع الفتاوى: (٢٠/٢١٢)].

(٤) [مفتاح دار السعادة (١/٦٠)].

وقوله: (في دينه القِيَم) قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة:٣٦] قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٦/٢٨٤)] : أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

٩	وحَثَّ ربِّي وحَضَّ المؤمنينَ عَلى	تَفَقُّهِ الدِّينِ مَعْ إنْذارِ قَوْمِهِم

الشرح

بيَّن سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وحثَّ على التفقه في الدِّين فقال سبحانه: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم وقد اختلف في الآية فقيل المعنى إن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي إن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم [(١)] . اهـ

---

(١) [مفتاح دار السعادة (١/٥٦)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

٩	وامْـتَنَّ رَبِّي عَـلى كـلِّ العِبـادِ وكُـلِّ	الرُّسْـلِ بـالعِلْمِ فـاذْكُرْ أكْـبَرَ الـنِّعَمِ

الشرح

العلم نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده وهو مِنَّةٌ منه سبحانه قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣- ٥]، ومن أسماء الله المنان كما في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، عند أحمد برقم (١٢٢٠٥) وغيره وهو حديث صحيح وهو في الصحيح المسند (١٠١).

وقوله: «على كل العباد» الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٥] **وقوله: «على كل العباد»** إما تكون العبارة على عمومها فيكون المراد العلم العام حتى الكفار يدخلون في ذلك قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، فهم يعلمون لكن كما قال الله: ﴿ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وليس باطنها فإنهم لو علموا باطنها وحقيقتها لأسلموا.

وإما أن يكون قوله: على كل العباد من العام المخصوص وهم عباده المؤمنون الذين امتن عليهم بالعلم النافع.

وقوله: «وكل الرسل» أي: وامتنَّ بالعلم على جميع الرسل قال تعالى في كتابه الكريم مبيناً هذا الأمر العظيم وأنه امتنَّ على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلم : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾[الشورى:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء:١١٣]، فبين سبحانه فضيلة العلم وأنه أشرف شيء يلقاه العبد في دنياه.

وقوله: «فاذكر أكبر النعم» أكبرُ نعمة على العبد هي نعمة الإسلام فهي النعمة العظمى التي لا توزيها نعمة فأكبر نعمة على العبد أن يكون مسلماً موحّداً محققاً العبودية لله سبحانه وتعالى التي خُلِقَ من أجلها وهذا لا يتأتى إلا بالعلم النافع المقرون بالعمل الصالح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

١٠	يَكفِيــكَ في ذاكَ أُولَى سُــورَةٍ نَزَلَــتْ	عَــلى نَبِيِّــكَ أعْنــي ســورَة القَلَــم

الشرح

أي: يكفيك في فضل العلم وشرفه أنه أُنزلت فيه أول سورة العلق وهن الخمس الأُوَل من سورة العلق كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، في الصحيحين.

وقوله: (أعني سورة القلم) أي: السورة التي ذكر فيه القلم وهي سورة العلق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ٤] ولم يُرد الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ سورة القلم التي هي بعد سورة الملك وعرفنا ذلك من قوله أول سورة نزلت، ومعلوم أن سورة القلم ليست هي أول سورة نزلت بلا خلاف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى:

١١	كـــذاكَ فِي عِـــدَّةِ الآلاءِ قدَّمَـــهُ	ذِكْـرًا وقَدَّمَـهُ فِي سُـورَةِ الـنَّعَم

الشرح

قوله: (**كذاك في عده الآلاء قدمه ذكرًا**) أي: وقَدَّم ذكرَ العلم أيضًا في عده للآلاء في سورة الرحمن فقد تكرر فيه، **قوله تعالى**: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣] في إحدى وثلاثين موضعًا وبدأ سبحانه بذكر نعمة العلم قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن: ١. ٤].

وقوله: «**وقدمه في سورة النعم**» وهي سورة النحل، وسميت بذلك؛ لكثرة تعداد النعم فيها.

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (١٠/ ٦٥): وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده. اهـ

وقد قدمه الله في أول سورة النحل فقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ١. ٢]، والمراد بالروح هو الوحي وهو ينزل ببيان أمور الدين وذكر سبحانه في السورة نفسها امتنانه على عباده بالعلم ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى:

١٢	ومَيـزَهُ اللهُ حَتـى في الجـوارِحِ مَـا	مِنْهـا يُعلـمُ عـنْ بـاغٍ ومُغْتَشِـم

الشرح

ميَّزَ اللهُ سبحانه وتعالى الذي يعلم من الذي لا يعلم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩] .

قلتُ: حتى في الحيوانات ميَّز الله الكلب المُعَلَّم على غيره ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: ٤]، مع أن الكلب من أنجس الحيوانات، وهو أخس الحيوانات، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥.١٧٦]، فمثل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه أو يعمل بما يخالف علمه بالكلب ولو كان هناك شيءٌ أقبح من الكلب لمثله به فإذا صار معلماً جاز أكل ما يصيده.

قوله: «**عن باغٍ**» الباغي هو المعتدي.

«**ومغتشم**»، وهو الذي يأتي بالأمور خبطاً من غير فكر ولا نظر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى:

١٣	وذمَّ ربِّي تعـــالَى الجـــاهِلِينَ بـــهِ	أشَـدَّ ذمٍّ فَهُـمْ أدْنـى مِـنَ الـبُهم

الشرح

ذم اللهُ تعالى الجاهلين بهذا الدين أشد ذمٍ فهم أدنى من البهائم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[الفرقان: ٤٤].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يميناً ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثر، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار. فهم أضل من البهائم. فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه هو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه [(١)] . اهـ

---

(١) التفسير القيم (٤٠٩).

قوله: «البهم» جمع بهيمة.

قال القرطبي في "تفسيره" (٦/ ٣٤): البهيمة اسم لكل ذي أربع، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

١٤	ولـيْسَ غِبْطَـةٌ ٱلا في ٱثْنَتَيْنِ هُمـا الْـ	إحْســانُ في الــمالِ أو في العِلْــم

الشرح

يدل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها [(١)]».

وجاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار [(٢)]».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحقيق: أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان:

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها؛ لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه ولكن ذلك الألم

---

(١) رواه البخاري برقم (٧٣) ومسلم برقم (٨١٦).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٠٢٥) ومسلم برقم (٨١٥).

لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق؛ فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود. والحاسد ليس له غرض في شيء معين؛ لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع. ولهذا قال من قال: إنه تمني زوال النعمة فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه فهذا حسدٌ وهو الذي سموه الغبطة وقد سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

١٥	ومِـنْ صِـفاتِ أُولي الإيـمانِ نَهْمَـتُهُمْ	فِي العِلْم حتى اللَّقَى غِبْط بِذِي النَّهَم

الشرح

من صفات وزينة أهل الإيمان شدة حرصهم على طلب العلم والنهمة هي: بلوغ الهمة في الشيء [(١)] .ا هـ

ومنه حديث: «**فإذا قضى أحدكم نهمته، فلْيعجل إلى أهله** [(٢)] ».

فينبغي على طالب العلمِ أن تكون همتُه عالية ولا يشبع من العلم الشرعي ولا يكل ولا يمل قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**منهومان لا يشبعان: منهومٌ في علمٍ لا يشبع، ومنهومٌ في دنيا لا يشبع** [(١)] ».

---

(١) [النهاية (٥/١٣٨)].

(٢) رواه البخاري برقم: (٣٠٠١) ومسلم برقم (١٩٢٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وسئل أحمد رحمه الله: إلى متى تطلب العلم؟ فقال: من المحبرة إلى المقبرة [٢] . ا هـ

وقال العلامة ابن الجوزي:

لي همـــةٌ في العِلْـــم مـــا إن مثلُهـــا وهـــي التـــي جَنَـــتِ النُّحُـــوْلُ هـــي التـــي

خُلِقـت مـن العِلْـق العظـيمِ إلى المُنَـى دُعِيـــتْ إلى نَيْـــل الكـــمالِ فَلبَّـــتِ[٣]

وقال ابنُ أبي حاتم في "مقدمة الجرح والتعديل" (١/ ٣٤٥): سمعتُ أبي يقول: مات أبو زُرعة مطعونًا مبطونًا يعرق جبينُه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم: ما تحفظ في تلقين الموتى؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فمن قبلِ أن يَسْتتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرَّة، عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخلَ الجنة» فصار البيت ضجَّة ببكاءِ من حضرَ. ا هـ

وقال المعافى النَّهْرَواني في "الجليس الصالح" (٣/ ٢٢٢): وحكى لي بعض بني الفرات، عن رجلٍ منهم أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ- قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذُكِرَ له هذا الدعاء، عن جعفر

=(١) رواه الحاكم برقم (٣١٢)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في "صحيح الجامع" برقم: (٦٦٢٤)، والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم: (٥١).

(٢) [الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٥٤)].

(٣) انظر السير (٢١/ ٣٧٩).

بن محمد -عليهما السلام- فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلمِ حتى يموت. ا هـ

وذكر عياضٌ في "المدارك" (٦/ ٢٧١) في ترجمة مسرَّة بن مسلم الحَضْرمي: وكان من أهل العلم والزهد التام- أنه لما احْتُضِرَ ابتدأ القرآن، فانتهى في سورة طه إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه/ ٨٤]، ففاضت نفسه. ا هـ

ذكر في ترجمة أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه قال: إني لأجد من حِرْصي على العلم، وأنا في عَشْرِ الثمانين أشدّ مما كنت أجده وأنا ابنُ عشرين سنة [(١)] . ا هـ

وهذا أبو الفرج ابن الجوزي: يقرأ في آخر عمره وهو في الثمانين القراءات العشر على ابن الباقلاني، مع ابنه يوسف.

قال الذهبي رحمه الله معلِّقًا: فانظر إلى هذه الهمة العالية! [(٢)] . ا هـ

قوله: (حتى اللِّقَى) أي: حتى الموت قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]. **واليقين** :هو الموت بدليل قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦-٤٧]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، في أبي السائب حين توفي: **«أما هو فقد جاءه اليقين من ربه..** [(٣)] **».**

---

(١) [الذيل على طبقات الحنابلة **(١/١٤٦)**].

(٢) [السير **(٢١/٣٧٧)**].

(٣) الحديث في صحيح البخاري عن أم العلاء الأنصارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا .

وقوله: (أغبط بذي النهم) أي: اجعل هذا الأمر أعظم ما يُغبط عليه أصحاب الهمم العالية، فانظر بين ما كان عليه سلفنا الصالح من الهمة العالية وبين هممنا الدنيئة فالله المستعان.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

١٦	العِلْمُ أغْلَى وأحْلى ما لَهُ اسْتَمَعَتْ	أذْنٌ وأعْـرَبَ عنـهُ نـاطِقٌ بِفَـم

الشرح

العلم شأنه عظيم فهو أغلى من كل شيء وأحلى شيء يستمعه المسلم، فالذي ديدنه العلم ويستمع له لا يرتاح إلا بذلك، ولا يجد حلاوة للدنيا إلا بالعلم.

وقوله: (وأعْرَبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَمِ) أي: هو أحسن شيء ينطق به المرء كيف لا يكون ذلك والعلم مأخوذٌ من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

١٧	العِلْـمُ غايَتُـهُ القُصْـوَى ورُتْبَتُـهُ الْـ	ـعَلْياءُ فاسْعَوا إليهِ يَا أُولِي الهِمَم

الشرح

العلم الشرعي يبحث عن أجل مقصود وأعظم غاية خُلق العبد من أجلها وهو توحيد الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧]، فالذي يهتم بالعلم رتبته عالية وقيمة غالية، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

﴿ [المجادلة:١١]، وعلى قدر اهتمامه بالعلم تكون قيمته ومنزلته عند الناس، قال ابن الوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قِيمَـــةُ الإِنْسَـــانِ مَـــا يُتْقِنُـــهُ أَكْثَـــرَ الإِنْسَـــانُ مِنْـــهُ أَو أَقَـــل

وقوله: (**يا أولي الهمم**) يا أصحاب الهمة العالية، الذين يريدون الدار الآخرة، أما من كانت همته دنيئة ودنيوية فهو بعيد عن هذه الفضائل، وأنَّى له ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

١٨	العِلْـمُ أَشْرَفُ مَطْلـوب وَطالِبُـهُ	للهِ أَكْـرَمُ مَـن يَمْشِـى عَـلى قَـدَم

الشرح

العلم الشرعي: هو أشرف ما يطلب العبد؛ لأن بالعلم الشرعي يعرف العبدُ ربه ويعرف كيف يعبده ويعرف الإسلام، وما يدعو إليه من الأخلاق العالية والآداب السامية، والصفات الحميدة ويصير مميَّـزًا عن غيره، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد:١٩]، وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

وقوله: (**وطالبه لله أكرم من يمشي على قدم**) أي: الذي يطلب العلم مخلصًا لله تعالى لا يريد مدحًا ولا منصبًا هو أكرم من يمشي على قَدَم، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك:٢٢]، فكلما اهتم طالب العلم بالعلم وعمل به أكرمه سبحانه من فضله وصار مكرمًا عند الناس، وهذا الكرمُ الذي يحصل له بين الناس هو بسبب تكريم الله له، وإلا إذا لم يكرمه الله فهو مهانٌ في الدنيا، والآخرة: ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى:

١٩	العِلْـمُ نـورٌ مُبـينٌ يَسْتَضِـيءُ بـهِ	أَهْلُ السَّعادَةِ والجُهَّالُ فِي الظُّلَمِ

الشرح

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن العلم نور يستضيء به أهله، وهم أهل السعادة قال تعالى مبينًا أن العلم نور لصاحبه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:٥٢]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة:١٥].

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن العلم ليس بكثرة الرواية إنما العلم نور يجعله الله في القلب) [(١)] .ا هـ

فالناس بحاجة إلى العلماء، فإنه يبصرونهم في الدين ويبينون لهم الصراط المستقيم فما للناس إلا دعوة أهل السنة والجماعة وقد ذكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه أخلاق العلماء مثلاً للعالم كيف يحتاج إليه الناس، وكيف مكانته بين الناس فقال: (فما ظنكم -رحمكم الله- بطريق فيه آفات كثيرة ، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه مصباح وإلا تحيروا، فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس لابد لهم من السلوك فيه، فسلكوا، فبينما هم كذلك ، إذ طفئت المصابيح ، فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض، وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقه،

---

(١) انظر [الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٧٤)].

إلا ببقاء العلماء ، فإذا مات العلماء تحير الناس ، ودرس العلم بموتهم ، وظهر الجهل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون مصيبة ما أعظمها على المسلمين ؟ ».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم) [(١)] .ا هـ

قوله: (أهل السعادة) فهم أهل سعادة بالعلم؛ لأن العلم نوّرَ لهم الطريقَ فلا حياة طيبة ولا سعادة دائمة في الدنيا والآخرة إلا بالعلم الشرعي والعمل الصالح قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]، ولا يتأتى العمل الصالح إلا بالعلم، وبهذا ينالُ الحياةَ الطيبة.

وقوله: (والجهال في الظلم) أي: الجهال الذين ليس عندهم علمٌ يستضيئون به يتخبطون في ظلمات المعاصي ظلمات بعضها فوق بعض والذنوب لها آثارٌ سيئةٌ على العبد في حياته وبعد مماته قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور. ا هـ

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

---

(١) [راجع التبصرة لابن الجوزي **(٢/١٩٣)**].

ومما يُنسب إلى الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشـــدني إلى تـــرك المعـــاصي

وقـــال اعلـــم بـــأن العلـــم فضـــلٌ ... وفضل الله لا يؤتاه عاصي[1]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

٢٠	الْعِلْـمُ أعْـلَى حَيـاةٍ للعِبـادِ كَـما	أهْلُ الجَهالَةِ أمْواتٌ بِجَهْلِهِمِ

الشرح

ومن فضل العلم أنه حياةٌ للقلوب قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقد ضرب الله مثلاً للذي كان ميتاً في الكفر والشرك فأحياه الله بنور العلم والإيمان فقال سبحانه: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم حياةٌ ونورٌ والجهل موتٌ وظلمةٌ والشرُ كلُّه سببُه عدمُ الحياة والنورُ والخيرُ كلُّه سببُه النور والحياة [2] . اهـ

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مثلُ الذي يذكرُ ربَّهُ والذي لا يذكرُ رَبَّهُ مثلُ الحَيِّ والميت [1] ».

---

(١) راجع الجواب الكافي(٥٢).

(٢) [مفتاح دار السعادة (١/٥٤)].

وبعثة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها حياة للناس مما كانوا عليه من الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس:٧٠].

قال ابن كثير: وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة [٢] . اهـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

٢١ لا سَمْعَ لا عَقْلَ بل لا يُبْصِرونَ وفِي السَّعِيرِ مُعْتَرِفٌ كُلٌّ بِذَنْبِهِمِ

الشرح

هذه صفة أهل الجهل أنهم لا سمع لهم يسمعون به ولا عقل لهم يعقلون به ولا بصر يبصرون به فوجودها كعدمها؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠]، وقد بين سبحانه وتعالى أن المنفي عنهم هو عدم انتفاعهم بأسماعهم وقلوبهم وأبصارهم: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]، ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١].

وقوله: (وفي السعير) أي: في النار والسعير اسم من أسمائها كما قال تعالى عن الكفار: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ﴾

=(١) رواه البخاري برقم (٦٤٠٧) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٢) [تفسير ابن كثير (٥٢٧/٦)].

[القمر:٤٧]، وسميت بالسعير لشدة توقدها وحرارتها، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾ [التكوير:١٢].

وقوله: (معترِفٌ كلٌّ بذنبِهِم) أي: يعترف كل واحد بذنبه ولا ينفعهم الاعتراف في يوم القيامة والندم، قال تعالى: ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ [غافر:١١]، قال القرطبي في تفسيره عند هذه الآية: اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم: ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر:١١] أي: هل نرد إلى الدنيا لنعمل بطاعتك، نظيره: ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى:٤٤]، وقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، وقوله: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧]. وقال تعالى: ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١].ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

٢٢	فالجَهْلُ أَصْلُ ضَلالِ الخَلْقِ قاطِبَةً	وأَصْلُ شَقْوَتِهِمْ طُرًّا وظُلْمِهِمِ

الشرح

أصل كل ضلال في الإنسان هو بسبب جهله في دينه فما يحصل للناس (طُرًّا) أي: جميعًا من الضلال والشقاوة والظلم والشرك والكفر هو بسبب الجهل.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة، عمدا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل [(١)] . ا هـ

---

(١) [انظر مدارج السالكين (١/٢٩٤)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالى:

٢٣	والعِلْمُ أصْلُ هُداهُمْ مَعْ سَعادَتِهِمْ	فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى ذَوُو الحِكَمِ

الشرح

أصل هداية المرء وسعادته هو بالعلم الشرعي علم الكتاب والسنة وهو العلم الحقيقي الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

فمن كان متبعًا للكتاب والسنة فهو متبع لهدى الله تعالى قال سبحانه: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فنفى عن متبع هداه أمرين الضلال والشقاء، وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣]، والآية نفت مسمى الضلال والشقاء عن متبع الهدى مطلقًا فاقتضت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى ولا يضل في الآخرة ولا يشقى فيها، فإن المراتب أربعة: هدى، وشقاوة في الدنيا، وهدى وشقاوة في الآخرة، لكن ذكر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في كل دار اظهر مرتبتيها [(١)]. اهـ

---

(١) [مفتاح دار السعادة (٣٣-٣٤)].

قلت: أثرُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٤٨١) وابن جرير في تفسيره عند الآية وسنده صحيح بلفظ: «ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة»، ثم تلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣].

وقوله: (ذوو الحكم) أي: أصحاب الحِكَمِ لأنهم وضعوا الأشياء في مواضعها ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فالحكمة إذا: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي [(١)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٤	والخَوفُ بالجهْلِ والحُزْنُ الطويلُ بِهِ	وعَن أُولِي العِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَاعْتَصِمِ

الشرح

أي: يحصل الخوف والحزن الطويل بسبب الجهل فهو ضيَّع عمره في ظلمات الجهل فهو خائف مما هو آت وخزين على ما فاته لكن ماذا ينفع بعد ذلك، ومما يُنسبُ إلى الشافعي رحمه الله:

إذا مر بي يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمري

وأما أهل العلم فمنفيان عنهم لأنهم قضَّوا أعمارهم في طلب العلم الشرعي والعمل به قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ

---

(١) [مدارج السالكين (٢/٤٤٩)].

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام:٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣].

وقوله: (فاعتصم) أي: بالعلم وتمسك به فهو ينجي صاحبه من ظلمات الجهل والشرك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٥	العِلْـــمُ واللهِ مِـــيراثُ النُّبُـــوَّةِ	لا ميراثَ يُشْبِهُهُ طوبَى لِمُقْتَسِمِ

الشرح

هذا قسم منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن العلم ميراث النبوة وهذا القسم تأكيدٌ منه بأن العلم ميراث الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

وقوله: (ميراث النبوة) يدل على ذلك ما جاء عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظ وافر** [(١)] ».

وقوله: (لا ميراثَ يشبهه) لا أموال ولا تجارات ولا زرعات ولا عقارات ولا قصور ولا غيرها من أمور الدنيا، لا يشبه ميراث الأنبياء.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١) والترمذي برقم (٢٦٨٢) وابن ماجه برقم (٢٣٣) وأحمد برقم (٢١٧١٥) وهو حديث حسن بطرقه.

قوله: (**طوبى لمقتسم**) أي: طوبى لمن أخذ نصيبه وحظه الوافر من العلم قال النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسمٌ والله يُعطي**»[(١)].

فطوبى لمن أخذ من هذا الميراث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد:٢٩]، **قيل**: اسم للجنة وقيل: اسمٌ لشجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها[(٢)].

وجاء عند الطبراني في "الأوسط" برقم (١٤٢٩) :عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه مر بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: «**يا أهل السوق، ما أعجزكم**»، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: «**ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه**» قالوا: وأين هو؟ قال: «**في المسجد**»، فخرجوا سراعًا إلى المسجد، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: «**ما لكم؟**» قالوا: يا أبا هريرة، فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نرَ فيه شيئًا يقسم. فقال لهم أبو هريرة: «**أما رأيتم في المسجد أحدًا؟**» قالوا: بلى، رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرءون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: «**ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ**[(٣)] ».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١) ومسلم برقم (١٠٣٧) عن معاوية رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٢٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه وجاء عن أبي سعيد رضي الله عنه رواه البخاري برقم (٦٥٥٣) ومسلم برقم (٢٨٢٨) وجاء عن سهل بن سعد رضي الله عنه رواه البخاري برقم (٦٥٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٧) وجاء عن أنس رضي الله عنه رواه البخاري برقم (٣٢٥١).

(٣) وسنده حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٣).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٦	لأَنَّـــهُ إِرْثُ حَـــقٍّ دائِـــم أَبَـــدًا	وما سِواهُ إلى الإِفْنَاءِ والعَدَمِ

الشرح

هذا هو الإرث الحق والدائم لصاحبه في الدنيا والآخرة، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له** [(١)] **»** .

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله** [(٢)] **»**. والعمل الصالح لا يكون إلا بالعلم.

وقوله: (**وما سواه**) أي: من أنواع الإرث، فمآله إلى الفناء والنفاد، فهو إذا مات انتقل إلى ورثته ويفنى ومآله إلى العدم، أما ميراث العلم فيبقى الموت.

قال الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينالـــك نفعـــه مـــا دمـــت حيـــا ويبقـــى ذخـــره لـــك إن ذهبتـــا

---

(١) رواه مسلم برقم (١٦٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٥١٤) ومسلم برقم (٢٩٦٠)، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٧	ومنْـه إرْثُ سُـلَيْمانَ النُّبُـوَّةَ والْـ	فَضْـلَ المُبِـينَ فـمَا أوْلاهُ بِـالنِّعَمِ

الشرح

قوله: (ومنه) أي: الميراث الحق الدائم.

وقوله: (إرث سليمان النبوة والفضل المبين)، يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل:١٦].

قال السعدي: أي: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى علمه [(١)].

وقوله: (فما أولاه بالنعم) أي: فما أجدره وأحقه بالنعم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٨	كـذَا دَعـا زكريـا ربَّـهُ بِـوَلِي	الآلِ خَوفَ الموالِي مِن وَرائِهِم

الشرح

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾، إلى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم:١-٦].

قال ابن كثير: قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ﴾ [مريم:٥-٦]، على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٦] ، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ

---

(١) [ا هـ تفسير السعدي (٦٠٢)].

﴿ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل:١٦] أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة) [(١)] . اهـ

وقوله: (بولي الآل خوف الموالي من ورائهم) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ [مريم:٥].

قال العلامة السعدي في "تفسيره" ص(٤٨٩) :أي وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحدا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا، يقوم بالدين من بعده. اهـ

---

(١) [تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٠)] .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٩	العِلْـمُ مِيـزانُ شَرْعِ اللهِ حيـثُ بـهِ	قِوامُـهُ وبِـدُونِ العِلْـمِ لَمْ يَقُـمِ

الشرح

الميزان الذي يميز به في الشرع بين التوحيد والشرك وبين السنة والبدعة، وبين الحق والباطل وبين الحلال والحرام وبين الطيب والخبيث، وبين العمل الصالح والعمل الفاسد وغير ذلك، هو بالعلم النافع، ولهذا كان من دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اللّهم إني أسألك علمًا نافعًا وأعوذ بك من علم لا ينفع [(١)] ».

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «سلوا الله علما نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع [(٢)] ».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٠	وكُلَّـما ذُكِـرَ السُّـلطانُ في حُجَـجٍ	فالعِلْمُ لا سُلْطَةُ الأيْدِي لَمُحْتَكِمِ

الشرح

السلطان في الحجج والخصومات هو العلم وقد ذكر السلطان في القرآن في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:٦٨]، وقال: ﴿ لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٨٢) عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث حسن وفي مصنف ابن أبي شيبة برقم: (٢٦٧١٢).

(٢) وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (١٥١١).

[الكهف:١٥]، وقال: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٢١]، وقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر:٣٥]، وقال: ﴿وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان:١٩]، والمراد بالسلطان في هذه الآيات: هو الحجة والبرهان.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كل سلطان في القرآن فهو حجة. أخرجه البخاري تعليقًا ووصله ابن جرير: **(١٩/ ٤٤٤)**: وسنده حسن.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود أن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانًا؛ لأنها توجب تسلط صاحبها، واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد، فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه، إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة [(١)] . اهـ

وقوه: (لا سلطة الأيدي لمحتكم) أي: لا سلطة يد ولا سلاح ولا غير ذلك؛ لأن العلم الشرعي مبني على الكتاب والسنة فهو يحقق العدل دائمًا أما سلطان اليد

---

(١) [مفتاح دار السعادة **(١/٥٩)**] .

أو السلاح فهو إن كان مع صالح، فيكون بالعدل، وإن كان مع ظالم غاشم فسيكون بالظلم، ولهذا قال الناظم رحمه بعد ذلك:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣١	فسُــلطَة اليَــدِ بالأبْــدانِ قــاصِرَةٌ	تَكونُ بالعَدْلِ أوْ بالظُّلْمِ والغَشَمِ

الشرح

فسلطة الأمير أو الرئيس أو الملك ونحوهم يكون تأثيرها قاصرًا على الأبدان فقط، وليس لها تأثيرٌ على القلوب وقد تكون بالعدل وقد تكون بالظلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٢	وسُــلْطَةُ العِلْــم تَنْقــادُ القُلــوبُ لَهــا	إلَى الهُدَى وإلَى مَرْضاةِ رَبِّهِم

الشرح

وأما سلطة العلم فالقلوب السليمة تنقاد لها لأنه يقودهم إلى الهدى إلى جنة الله ورضوانه وهذا هو حال المؤمن قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١].

وهذا هو الذي ينبغي على المسلم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : لما خرجت الحرورية اعتزلوا في دار

وكانوا ستة آلاف، فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين أبرد بالصلاة لعلي أكلم هؤلاء القوم، ثم جاء وجادلهم بالحجة والبرهان [١] .

فإذا حصل خلاف أو نزاع رُدَّ ذلك إلى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى :﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٣	ويَذْهَبُ الدِّينُ والدُّنْيا إِذَا ذَهَبَ الْـ	عِلْمُ الَّذِي فيهِ مَنْجاةٌ لِمُعْتَصِمِ

الشرح

إذا ذهب العلمُ ذهب الدِّين والدنيا؛ لأن ذهاب العلم من أشراط الساعة، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا** [٢] ».

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى برقم (٨٥٢٢) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو في "الصحيح المسند" برقم (٦٩٤).

(٢) رواه البخاري برقم: (٨٠)، ومسلم برقم: (٢٦٧١)، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وفي البخاري برقم: (٧٠٦٢)، ومسلم برقم: (٢٦٧٢) عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن بين يدي الساعة لأيامًا، ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج»، وجاء في البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج وذهاب العلم هو بذهاب أهله وحملته»، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسًا جُهَّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا [1] ».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٣٤	العِلْمُ يا صَاحِ يَسْتَغْفِرْ لِصاحِبِهِ	أهلُ السّماوَاتِ والأرْضِينَ مِنْ لَمَمِ

الشرح

هذا أيضًا من فضائل أهل العلم: أنه يستغفر له أهل السموات والأرض، وقد جاء هذا الفضل في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل

---

(١) رواه البخاري برقم: (١٠٠) ومسلم برقم: (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، لم يورثوا دينارًا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظ وافر [(١)] **»**.

وجاء عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: ذكر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان **أحدهما:** عابد والآخر: عالم فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم** [(٢)] **»**.

ومعلوم أن الملائكة تستغفر للمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٧]، ولكن هذا استغفار من جميع المخلوقات خاص بطالب العلم، فكم من مخلوقات في السموات والأرض لا يعلم بعددها إلا الله، ومع هذا تستغفر لطالب العلم فو الله إنها لمنقبةٌ عظيمة.

وقوله: (يا صاح) الأصل يا صاحبي ، وهذا يسمى في باب المنادى ترخيما.

وقوله: (من لمم) اللمم هي صغائر الذنوب، وفي هذا إشارة بفضيلةٍ لأهل العلم وهي بعدهم عن الكبائر بسبب ما عندهم من العلم والبصيرة في الدِّين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم: (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم: (٢٣٣)، وأحمد برقم: (٢١٧١٥)، وهو حديث حسن بطرقه.

(٢) رواه الترمذي وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح السنن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٥	كَـذَاكَ تَسْـتَغفِرُ الحيْتـانُ في لُجَـج	مِن البِحارِ لَه فِي الضَّوْءِ والظُّلَمِ

الشرح

كذلك أيضاً تستغفر لهم الحيتان، كما تقدم في الحديث: «**حتى الحيتان في الماء**»، هذه فضائل عظيمة لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فاحرص على أن تكون من أهل الخير والعلم.

وقوله: (**في الضوء والظلم**) أي: في الليل والنهار وهي مستمرة في الاستغفار له.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٦	وخـارِجٌ فِي طِـلاب العِلـم مُحْتَسِـبًا	مُجاهِـــدٌ في سَـــبيل أيُّ كَمِـــى

الشرح

يشير إلى حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل حتى يرجع**» [(١)].

ويغني عنه ما جاء في سنن ابن ماجه برقم: (٢٢٧) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخيرٍ يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»، وهو حديث صحيح، فلا شك ولا ريب في أن طلب

---

(١) رواه الترمذي برقم: (٢٦٤٧)، وهو حديث ضعيف.

العلم من أعظم الجهاد في سبيل الله، فكم يدفع الله بالعلماء وطلاب كثيرًا من الفتن والبدع، والشركيات والخرافات، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم** [(١)] ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد، والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته، وشدة مؤنته، وكثرة أعدائه، قال تعالى في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم:٩]، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن، والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله [(٢)] . ا هـ

---

(١) [رواه أبو داود برقم **(٢٥٠٤)** والنسائي برقم **(٣٠٩٦)** عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث صحيح].

(٢) [مفتاح دار السعادة **(١/ ٧٠)**].

وقوله: (**طِلَابِ**) طالب يطالب مطالبة، وطِلاباً، أي: طلبه بحق.

وقوله: (**محتسبًا**) أي: مخلصًا في طلبه للعلم يريد وجه الله والدار الآخرة، كم من طالب علمٍ يعملُ العمل وينسى الاحتساب أين نحن من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كانوا حريصين على الاحتساب، قال معاذ: «**أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي** [(١)] ».

وقوله: (**أيُّ**) ذكر ابن هشام في "مغني اللبيب" (١/ ١٠٩): أن من استعمالات (أيّ) مشددة: أنها تأتي دالة على معنى الكمال، فتقع صفة للنكرة، نحو: زيد رجل، أيُّ رجل أي: كامل في صفات الرجال. ا هـ والمعنى: أنه مجاهدٌ في سبيل الله كاملٌ في جهاده.

وقوله: (**كَمي**) **الكمي**: الشجاع المُتكمِّي في سلاحه؛ لأنه كمى نفسه، أي: سترها بالدِّرع والبيضة، والجمع الكُمَاة [(٢)] . ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٣٧	وإنَّ أجْنِحَـــةَ الأمْـــلاكِ تَبْسُـــطُها	لِطالِبِيـهِ رضًـا مِـنْهُمْ بِصُـنْعِهِمِ

الشرح

يشير إلى حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم** [(١)] ».

---

(١) رواه البخاري برقم: (٤٣٤١)، وفي مسلم برقم: (١٧٣٣).

(٢) [لسان العرب مادة (كمي)].

وحديث صفوان بن عسال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **أن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب رضا بما يطلب** [٢] **»**.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الحديث: حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء، وفي الأول وضعها أجنحتها له، فالوضع تواضعٌ وتوقيرٌ وتبجيلٌ، والحف بالأجنحة حفظٌ وحمايةٌ وصيانةٌ، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها إياه وحياطته وحفظه، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفًا وفضلاً [٣] . اهـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة، له حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري قال: سمعت أحمد بن شعيب، يقول: كنا عند بعض المحدثين بالبصرة، فحدثنا بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»**، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزئ بالحديث فقال: والله لأطرقن غدًا نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين فجفت رجلاه جميعًا ووقعت فيهما الآكلة، وقال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي، قال: كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشي وكان معنا رجل ماجن منهم في دينه، فقال:

=**(١)** الحديث أخرجه أبو داود برقم: **(٣٦٤١)**، والترمذي برقم: **(٢٦٨٢)**، وابن ماجه برقم: **(٢٣٣)**، وأحمد برقم: **(٢١٧١٥)**، وهو حديث حسن بطرقه.

(٢) رواه أبو داود برقم **(٣٦٤١)** والترمذي برقم **(٣٥٣٥)** والنسائي برقم **(١٥٨)** وابن ماجه برقم **(٢٢٣)** وأحمد برقم **(١٨٠٨٩)**، وهو حديث صحيح، وهو في الصحيح المسند برقم: **(٥٠٥)**.

(٣) [مفتاح دار السعادة: **(١/٦٤)**].

ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط [(١)] . اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٣٨	والسَّالِكونَ طريقَ العِلْمِ يَسْلُكُهُمْ	إِلَى الجِنانِ طريقًا بارئُ النَّسَمِ

الشرح

يدل على ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة** [(٢)] » وجاء عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم**».

وفي هذين الحديثين بيان أن طلب العلم الشرعي سبب لدخول الجنة.

وقوله: (بارئ النسم) أي: خالق الخلق، وهو الله سبحانه وتعالى فمن أسمائه البارئ قال تعالى: ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤].

قال القرطبي: والبارئ: المنشئ المخترع. اهـ

---

(١)[مفتاح دار السعادة (١/٦٤)].

(٢) رواه مسلم برقم: (٢٦٩٩).

وقال تعالى: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٤]، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق». (١) .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٣٩	والسَّامِعُ العِلْمَ والوَاعِي لِيَحْفَظَهُ	مُؤَدِّيًا نَاشِرًا إِيَّاهُ فِي الأَمَمِ
٤٠	فَيَا نَضَارَتَهُ إِذْ كَانَ مُتَّصِفًا	بِذَا بِدَعْوَةِ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

الشرح

ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنه قال: «**نضر الله امرأً سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**» (٢) .

وهو حديث متواتر جاء عن أربعة وعشرين صحابيًا وقد ألَّف العباد حفظه الله رسالةً بعنوان: دراسة حديث: «**نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي**»، رواية ودراية وجمع فيها طرق هذا الحديث، فبلغت أربعة وعشرين طريقًا عن أربعة وعشرين صحابيًا.

---

(١) [رواه مسلم برقم (٧٨)].

(٢) **صحيح**. أخرجه أحمد برقم: (٢١٥٩٠)، وأبو داود برقم: (٣٦٦٠)، وسنده صحيح وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٤٠٤)، والوادعي في "الصحيح المسند" برقم: (٣٥١) عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا ينال هذه النضارة إلا بأربعة أمور:

١ـ السماعُ لها.

٢ـ الوعي لما سمعه.

٣ـ الحفظُ لها.

٤ـ الإبلاغُ، والنشرُ للناس.

قال سفيان بن عيينة: ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة [(١)] .ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفا فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هي مراتب العلم:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه، أي عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدرًا زائدًا على مجرد إدراك المعلوم.

المرتبة الثالثة: تعامده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

المرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه في الأمة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه، وهو معرض لذهابه، فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم، فإنه يوشك أن يذهب فإذا انفق منه نما وزكا على الإنفاق، فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية

---

(١) [كما في شرف أصحاب الحديث ص(١٩)].

المتضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان، وابتهاج الباطن به، وفرح القلب وسروره، والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة، نضارة على الوجه [١] . اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤١	كَفاكَ فِي فَضْل أَهْل العِلْم أنْ رَفَعُوا	مِنْ أجْلِهِ دَرَجاتٍ فوْقَ غَيْرِهِمِ

الشرح

أي: يكفي في فضل العلم وأهله أن الله رفعهم درجات، قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:١١]، وفي "صحيح مسلم" برقم (٨١٧) :أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعسفان، وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : أما إن نبيكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع أحدها هذا.

---

(١) [مفتاح دار السعادة (١/ ٧١-٧٢)].

والثاني: قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢-٤].

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ طه:٧٥.٧٦].

والرابع: قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

فهذه أربعة مواضع في ثلاثة، منها: الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح.

والرابع: الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٢	وكـانَ فضْـلُ أبينَـا فِي القَـدِيم عَـلى الْ	أمْـلاكِ بـالعِلْم مِـن تَعْلِـيم رَبِّهِـم

الشرح

فضل الله سبحانه وتعالى بالعلم أبانا آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الملائكة كما ذكر سبحانه في سورة البقرة فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٣١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مفتاح دار السعادة" (١/ ٥٢): أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها. اهـ

وقال ابن رجب: ومما يدل على فضل العلم على العبادة: قصة آدم عليه السلام، فإن الله تعالى إنما أظهر فضله على الملائكة بالعلم، حيث علمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك، فلما أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذٍ فضله عليهم [(١)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٣	كـــذاكَ يوسُـــفُ لَمْ تَظْهَـــرْ فَضِـــيلَتُهُ	لِلعـــالَمِينَ بِغَـــيْرِ العِلْـــمِ والحِكَـــمِ

الشرح

أي: أن فضيلة يوسف عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ظهرت للعالمين بالعلم والحِكَم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف:٦]، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٢٢]، ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف:١٠١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذٍ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه في الأرض،

---

(١) [مجموع الرسائل: (١/٣٩)].

فدل على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أجمل صورة وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم [١] .ا هـ ، وللشيخ السعدي رسالة بعنوان "الفوائد المستنبطة من قصة يوسف" فلتراجع ففيها فوائد جمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٤	ومـــا اتِّبـــاعُ كَلـــيم اللهِ لِلْخَضِـــرِ الْ	مَعْـــروفِ إلا لعِلْـــمٍ عَنْـــهُ مُنْـــبَهِمِ

الشرح

يشير إلى ما ذكره الله في أواخر سورة الكهف، فقال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥]، فموسى الذي هو كليم الله واصطفاه برسالاته يرحل إلى الخضر، ويقول له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:٦٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مفتاح دار السعادة" (١/ ٥٥): أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده وكلمه منه إليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه، ويزداد علمًا إلى علمه، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠]، حرصًا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:٦٦]، فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف:٦٦]، فلم

---

(١) [مفتاح دار السعادة (١/٥٣)].

يجيء ممتحنًا ولا متعلما وإنما جاء متعلما مستزيدًا علما إلى علمه، وكفى بهذا فضلاً وشرفًا للعلم، فإن نبي الله وكليمه سافر، ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها.ا هـ

وقوله: (**إلا لعلم عنه منبهم**) أي: ما رحل إلى الخضر إلا من أجل علم لم يعلمه كما قال الخضر لموسى: «**يَا مُوسَى، إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لاَ تَعْلَمُهُ** (١) »

تنبيهٌ: قوله: (للخضر المعروف): لأنه قد حصل خلاف في الخضر هل هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، أو هو موسى بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

والصحيح الذي لا شك فيه: أنه موسى بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صاحب الخضر المعروف، وقد وردت قصتهما في سورة الكهف، وهو ترجيح ابن الجوزي وشيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير والحافظ وغيرهم من أهل العلم.

وقد جاء في البخاري برقم (١٢٢)، ومسلم برقم (٢٣٨٠) :عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « إن نوفا البكالي يزعم أن موسى عليه السلام، صاحب بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر، عليه السلام».

قلت: وما أنكر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على نوف البكالي وأغلظ عليه، وقال فيه: كذب عدو الله إلا لبطلان قوله.

---

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٢٧) ومسلم برقم (٢٣٨٠) عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

مسألة: هل الخضر ملكٌ أو وليٌ أو نبيٌ؟

اختلف المفسرون والمؤرخون في ذلك ثلاثة أقوال مشهورة:

القول الأول: إنه ملك من الملائكة، يتصور في صور الآدميين.

قال النووي: هذا غريب باطل.ا هـ

وقال ابن كثير: هذا غريب جدًا.ا هـ

وقال المناوي: وهو غريب.ا هـ

القول الثاني: أنه ولي وهو مذهب الصوفية وغيرهم، وقال به أبو علي بن أبي موسى من الحنابلة، وأبو بكر الأنباري، وأبو القاسم القشيري.

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على خزعبلات الصوفية في تفضيل الولي على النبي، ردًا جميلاً، حيث قال: قد أجمع المسلمون على أن موسى أفضل من الخضر.

فمن قال: إن الخضر أفضل، فقد كفر، وسواء قيل: إن الخضر نبي أو ولي. والجمهور على أنه ليس بنبي.

بل أنبياء بني إسرائيل الذين اتبعوا التوراة، وذكرهم الله تعالى كداود عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وسليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أفضل من الخضر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل على **قول الجمهور:** إنه ليس بنبي، فأبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أفضل منه.

وكونه يعلم مسائل لا يعلمها موسى، لا يوجب أن يكون أفضل منه مطلقًا. كما أن الهدهد قال لسليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل:٢٢]، لم يكن أفضل من سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وكما أن الذين كانوا يلقحون النخل، لما كانوا أعلم بتلقيحه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يجب من ذلك أن يكونوا أفضل منه -، وقد قال لهم: «**وأنتم أعلم بأمر دنياكم، وأما ما كان من أمر دينكم فإلي**».

وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتعلمون ممن هم دونهم علم الدين الذي هو عندهم، وقد قال : «**لم يبقَ بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة**».

ومعلوم أن ذريتهم في العلم أفضل ممن حصلت له الرؤيا الصالحة، وغاية الخضر أن يكون عنده من الكشف ما هو جزء من أجزاء النبوة، فكيف يكون أفضل من نبي؟ فكيف بالرسول؟ فكيف بأولى العزم [(١)] ؟!.ا هـ

القول الثالث: أنه نبي، قاله جمهور العلماء المحققين.

قال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال.ا هـ

وقال القرطبي: والخضر نبي عند الجمهور.ا هـ

والقول الثالث هو القول الصحيح فلا يعوَّل على غيره وهو ترجيح القرطبي في "تفسيره" وابن كثير والحافظ ابن حجر والعلامة الشوكاني والألباني وابن باز رحمة الله عليهم أجمعين والعباد في شرح سنن أبي داود حفظه الله .

قال القرطبي رحمه الله: والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي، وأيضاً فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بني [(٢)] . ا هـ

---

(١) [انظر مختصر الفتاوى المصرية (٥٦١)].

(٢) [تفسير القرطبي (١٦/١١)].

قال العلامة الألباني: ونبوة الخضر ليست بحاجة في إثباتها إلى مثل هذا الحديث بعد قوله تعالى في القرآن حكاية عن الخضر: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢]، وغير ذلك من الأدلة المعروفة(١).ا هـ

قال ابن كثير: إن دل تخصيص الله عز وجل بتلك الأمور الغيبية بالخضر دون موسى - عليهما السلام- مع أنه من أولي العزم من الرسل، فإنما يدل على نبوة الخضر.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٥	مَــعْ فَضْــلِهِ بِرِســالاتِ الإِلَــهِ لَــهُ	وَمَوْعِــدٍ وسَــماعٍ مِنْــهُ لِلْكَلِــمِ

الشرح

فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع فضله برسالة الإله له كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤]، وقوله: وموعد يشير إلى قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وسماع منه للكلم أي: سمع كلام الله من الله: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/١١) وشرح مسلم (١٣٦/١٥) ومجموع الفتاوى: (٣٣٨/٤) والفتح (٢١٩/١) وفتح القدير (٣٥٤/٣) والضعيفة (٥٨٥/١١) ومجموع فتاوى ابن باز (٢٨٧/٩).

[الأعراف:١٤٣]، ومع هذا الفضل كله رحل إلى الخضر ليتزود من العلم، قال العلامة السعدي: **فمنها**: فضيلة العلم والرحلة في طلبه.ا هـ

قلتُ: وقد ألف الخطيب البغدادي كتاب الرحلة في طلب العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى:

٤٦	وقَــدَّمَ المصْــطفى بــالعِلْم حامِلَــهُ	أعْظِــمْ بِــذلِكَ تَقْــدِيمًا لِــذِي قِــدَمِ

الشرح

هذه من جملة فضائل العلم وأهله أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم حامل العلم والقرآن على غيره في أشياء كثيرة.

منها: التقديم في الإمامة جاء في "صحيح مسلم" برقم (٦٧٣) عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله**» الحديث، وحديث عمرو بن سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «ليؤمكم أكثركم قرآنا** [(١)] **»**.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١/ ٧٣): أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدَّم بالفضائل العلمية في أعلا الولايات الدينية وأشرفها، وقدم بالعلم بالأفضل على غيره، فروى مسلم في "صحيحه" من حديث أبي مسعود البدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاما، أو سنا**»، وذكر الحديث،

---

(١) رواه البخاري برقم: (٣٤٠٢).

فقدم في الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة، ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومة على معلوم السنة قدم العلم به، ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة، وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به، لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وأن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية.ا هـ

ومنها: التقديم في الدفن جاء عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن، فإذا أُشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد** (١) ».

وقوله: (**لذي قَدَم**) أي: لصاحب القدم في العلم والتعليم، له فضل وكرم كما قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢].

قال العلامة السعدي في "تفسيره" ص (٣٥٧): أي: لهم جزاء موفور وثواب مذخور عند ربهم، بما قدموه وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٤٧	كفَــاهُمُو أنْ غَــدَوْا لِلْــوَحْي أوْعِيَــةً	وأضْــحَتِ الآيُ مِنْــهُ فِي صُــدورِهِمِ

الشرح

كفى شرفاً وفضلاً لأهل العلم، أنهم أصبحوا أوعيةً للعلم فصار العلم في قلوبهم محفوظاً كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [العنكبوت:٤٩].

---

(١) [رواه البخاري برقم: (١٣٤٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧-٤٩]، وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ، وهو في نفسه آيات بينات، فيكون أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين وعلى التقديرين، فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله [(١)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٨	وَأَنْ غَـدَوا وُكَـلاءَ في القيـام بِـهِ	قَـولاً وَفِعْـلا وَتَعْلِـيماً لِغَـيرِهِم

الشرح

وهذه من فضيلة أهل العلم أنهم أصبحوا وكلاء في القيام بالعلم في أنفسهم قولاً وفعلاً، وفي تعليم غيرهم والنصح لهم، ولهذا فالعالم بفتواه وتعليمه كأنه

---

(١) [مفتاح دار السعادة: (١/ ٥٠)].

يوقع عن رب العالمين، ولهذا عنون ابن القيم على أحد كتبه "**إعلام الموقعين عن رب العالمين**".

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٩	وخصَّـــهُمْ ربُّنـــا قَصْـــرًا بِخَشْـــيَتِهِ	وعَقْـلِ أمْثالِـهِ فِي أصْـدَقِ الكَلِـمِ

الشرح

أي: خص الله سبحانه وتعالى قصراً من قصرت الشيء على كذا أي: لم أتجاوز غيره.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى قصر خشيته على أهل العلم وهذه فضيلة لأهل العلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مفتاح دار السعادة" (١/٥١): أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس بذلك فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٨]، وهذا حصر لخشيته في أولى العلم، وقال تعالى: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة:٨]، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء، فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلاً**»[(١)]. اهـ

---

(١) ضعيف. أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٤٥٣٢) والطبراني في الكبير برقم (٨٩٢٧) والبيهقي في الشعب برقم (٧٣٢) من طريق المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن مسعود به والمسعودي هو عبد الرحمن

=

وقوله: (وعقل أمثاله) أي: وخصهم الله بعقل الأمثال التي في القرآن، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي، ويقول: لست من العالمين [(١)] . ا هـ

وقال ابن كثير في "تفسيره" (١/ ١١٧): قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله، قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].ا هـ

وقال عمرو بن مرة: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني؛ لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [(٢)] . ا هـ

وقوله: (في أصدق الكلم) أي: اختص الله بهذه الأمور في كتاب الله وأصدق الكلام هو كلام الله كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن خير الحديث كتاب الله...**

=بن عبد الله بن عتبة وإن كان قد اختلط إلا أنه قد روى عنه يزيد بن هارون في الشعب فالعلة هو الانقطاع بين القاسم وبين جده ابن مسعود.

(١) ["مفتاح دار السعادة" (١/ ٥١)].

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٠).

[1] » ، وأخرجه أحمد برقم: (١٤٣٣٤) بلفظ: «فإن أصدق الحديث»، وسنده حسن، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٠	ومَــعْ شَــهادَتِهِ جــاءَتْ شَــهادَتُهُمْ	حَيْثُ اسْتَجابُوا وأَهْلُ الجَهْلِ في صَمَمِ

الشرح

أي: أن الله قرن شهادته بشهادتهم على أعظم مشهود وهو توحيده، وهذه من الفضائل لأهل العلم التي اختصهم الله بها ولم تحصل لغيرهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مفتاح دار السعادة" (١/٤٨): استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨]، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول. اهـ

---

(١) الحديث رواه مسلم برقم (٨٦٧) عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

وقال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٢٤): وهذه خصوصية عظيمة للعلماء .ا هـ

وقوله: «حيث استجابوا وأهل الجهل في صمم» أي: أهل العلم استجابوا لله وللرسول كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، وأهل الجهل في بعد عن الخير والاستقامة والعلم والهدى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥١	ويَشْـهدُونَ عَـلى أهْـل الجَهالَـةِ بالْـ	ـمَوْلَى إذا اجتَمَعُوا فِي يَوْمِ حَشْرِهِمِ

الشرح

أي: أن أهل العلم يشهدون على أهل الجهل إذا اجتمعوا بالله سبحانه مولاهم في يوم القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفتاح دار السعادة (١/ ٥١): أنه سبحانه استشهد بأهل العلم، والإيمان يوم القيامة على بطلان، قول الكفار فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٦].ا هـ

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحمد لله الذي أشهد أهل العلم، والإيمان جهل هؤلاء، وحيرتهم وضلالهم وكذبهم وافترئهم بشهادتهم على نفوسهم [(١)] .ا هـ

---

(١) [مفتاح دار السعادة (٢/ ١٨٤)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٢	والعَـــالِمُونَ عَـــلى العِبـــادِ فَضْـــلُهُمُ	كالبَدْرِ فَضْلا عَلى الدُّرِّيِّ فَاغْتَنِمِ

الشرح

أي: أن العلماء فضلهم على العباد كفضل البدر وهو القمر ليلة التمام والكمال في منتصف الشهر على الدري وهو الكوكب كما قال سبحانه: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور:٣٥]، ويدل على ذلك حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**» [(١)].

قال ابن رجب رحمه الله: وفي هذا المثل تشبيه للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله، وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب، وأن بين العالم والعابد من التفاوت في الفضل ما بين القمر ليلة البدر والكواكب، والسر في ذلك -والله أعلم- أن الكوكب ضوءه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر، فإن نوره يشرق على أهل الأرض جميعًا، فيعمهم نوره فيستضيئون بنوره، ويهتدون به في مسيرهم.

وإنما قال: «**على سائر الكواكب**» ولم يقل: على سائر النجوم؛ لأن الكواكب هي التي لا تسير ولا يهتدى بها، فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصور على نفسه، وأما النجوم فهي التي يهتدى بها كما قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]،

---

(١) رواه الترمذي وغيره.

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام:٩٧]، فكذلك مثل العلماء من أمته بالنجوم في الحديث الذي سبق ذكره [١] .ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب، فإن القمر يضيء الأفاق ويمتد نوره في أقطار العالم وهذه حال العالم، وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه، وهذه حال العابد الذي يضيء نور عبادته عليه دون غيره، وأن جاوز نور عبادته غيره، فإنما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة [٢] .ا هـ

وقوله: (**فاغتنم**) أي: حياتك في طلب العلم وتحصيله والتزود منه والعمل به.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٣	وعَـالِمٌ مِـنْ أُولِي التَّقْـوَى أشـدُّ عَـلى الـ	شيْطانِ مِنْ ألْف عَبَّادٍ بِجَمْعِهِمِ

الشرح

أي: أن العالم من أهل التقوى أشد على الشيطان من ألف عباد، وهي صيغة مبالغة من عابد؛ لأن العالم نفعه متعد إلى الناس مثل الغيث أينما نزل نفع بخلاف العُبَّاد نفعهم قاصر عليهم، وربما عبدوا الله على جهل وبدع ما عندهم بصيرة، وأما العلماء فإنهم يعبدون الله على علم وبصيرة.

---

(١) [مجموع رسائل ابن رجب (١/ ٣٢. ٣٣)].

(٢) [مفتاح دار السعادة (١/ ٦٥)].

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت العاقل البصير بحلال الله وحرامه [(١)] . ا هـ

وجاء حديثٌ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابد»**. رواه ابن ماجه وهو حديث موضوع، فيه: روح بن جناح، منكر الحديث، قال ابن حبان رحمه الله: منكر الحديث جدًا، يروي عن الثقات، ما إذا سمعها الإنسان الذي ليس بالمتبحر في صناعة الحديث شهد لها بالوضع [(٢)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٥٤	ومَـوْتُ قَـوْم كَثِـيرُو الْعَـدِّ أيْسَـرُ مِـنْ	حَبْرٍ يَموتُ مُصَابٌ واسِعُ الألَمِ

الشرح

إذا مات ناسٌ عددهم كثير وليسوا من أهل العلم فإنه أيسر من موت (حَبر) بكسر الحاء وفتحها وهو العالم؛ لأن موت العالم ثُلمةٌ في الإسلام كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: موتُ العالمِ ثُلمةٌ في الإسلام لا يسدُّها شيءٌ ما طرد الليل والنهار [(٣)] . ا هـ

---

(١) [كما جامع بيان العلم وفضله (١/١٢٧)].

(٢) [المجروحين: (١/٣٠٠)].

(٣) [كما جامع بيان العلم وفضله برقم (١٠٢١)].

وقال حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبلغه موت الفتى من أصحاب الحديث فيرى ذلك فيه، ويبلغه موت الرجل يذكر بعبادة فما يرى ذلك فيه» .

وقال حماد بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «حضرت أيوب السختياني وهو يغسل شعيب بن الحبحاب، وهو يقول: «إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨]» [١]

وما أحسن ما قاله الأصمعي:

لعمرك ما الرزيةُ فقد مالٍ ... ولا فرسٌ يموتُ ولا بعيرُ

ولكنَّ الرزيةُ فقد حرٍ ... يموتُ لموته خلقٌ كثيرُ [٢]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٥	كَمَا مَنافِعُهُ فِي العالَمِ اتَّسَعَتْ	وَلِلشَّياطِينِ أَفْراحٌ بِمَوْتِهِمِ

الشرح

أي: منافع العلم اتسعت في العالم وسارت في الآفاق وانتشر العلم، ولله الحمد والمنة.

وقوله: (وللشياطين أفراح بموتهم) أي: أن شياطين الإنس والجن يفرحون بموت العلماء جاء في "الشعب" للبيهقي عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابدًا.

---

(١) [أخرجها اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" برقم (٣٤-٣٥)].

(٢) [انظر مجاني الأدب (٣/ ٤٢)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٦	تَـاللهِ لَـوْ عَلِمُـوا شَـيْئًا لَـمَا فَرِحُـوا	لأَنَّ ذَلِـكَ مِـن أَعْـلامِ حَـتْفِهِمِ

الشرح

أقسم بالله لو علم كل من يفرح بموت العلماء من شياطين الإنس والجن بشيء من العلم وفضله لما فرحوا بموت العلماء؛ (لأن ذلك من أعلام حتفهم) أي: لأن موت العلماء علامةٌ على قرب الساعة؛ لأن الأرض إذا خلت من العلماء قامت الساعة لحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن اللهَ لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا** [(١)] ».

وحديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله** [(٢)] ».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٧	هُـمُ الرُّجُـومُ بِحَـقٍّ كُـلَّ مُسْـتَرِقٍ	سَمْعًا كَشُهْبِ السَّمَا أَعْظِمْ بِشُهْبِهِمِ

الشرح

وهذه فضيلةٌ أخرى للعلماء وهي أنهم كالنجوم رجومًا للشياطين.

---

(١) [رواه البخاري برقم (١٠٠) ومسلم برقم (٢٦٧٣)].

(٢) [رواه مسلم برقم (١٤٨)].

وقوله: (أعظم بِشُهْبِهِمِ) أي: أعظم بشهب أهل العلم التي يتصدون بها لكل مبطل بالرد والتفنيد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٨	لأنَّهَا لِكِلا الجِنْسَيْنِ صَائِبَةٌ	شيطانِ إنْسٍ وجِنٍّ دونَ بَعْضِهِمِ

الشرح

أي: هذه الشهب والسهام من العلماء المحققين الربانيين لكلا الجنسين يعني: للجن والإنس تصيبهم جميعاً دون بعضهم، وقد جاء في "مسند أحمد" برقم: (١٢٦٠٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ، كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ، أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ [(١)]».

قال ابن رجب رحمه الله: وهذا مثل في غاية المطابقة؛ لأن طريق التوحيد، والعلم بالله تعالى وأحكامه، وثوابه وعقابه لا يدرك بالحس، إنما يعرف بالدليل، وقد بين ذلك كله في كتابه وعلى لسان رسوله، فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاء الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك، وقد شبه العلماء بالنجوم، والنجوم في السماء، **فيها ثلاث فوائد**: يهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين الذين يسترقون السمع منها.

---

(١) رواه أحمد برقم (١٢٦٠٠) وفيه رشدين بن سعد وعبد الله بن الوليد وهما ضعيفان، وأبو حفص مجهول كما ذكر الهيثمي في المجمع، وقد ضعفه العلامة الألباني في "الضعيفة" برقم: (٥٨٧٤).

والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويدخلون في الدين ما ليحمنه من أهل الأهواء، وما دام العلم باقيًا في الأرض، فالناس في هدى [(١)] . ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٥٩	هُـمُ الهُـداةُ إلى أهْـدَى السَّـبيل وأهْـ	لُ الجَهْلِ عنْ هَدْيِهِمْ ضَلُّوا لِجَهْلِهِمِ

الشرح

قوله: (هم الهداة) أي: العلماء يهدون الناس إلى أهدى السبيل وهو سبيل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

وقوله: (وأهل الجهل عن هديهم ضلوا لجهلهم) أي: أن أهل الجهل ضلوا، عن هدي أهل العلم بسبب تماديهم في الجهل.

---

(١) [مجموع رسائل ابن رجب: (١/ ١٤-١٥)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٠	وفَضْلُهُمْ جاءَ في نصِّ الكِتاب وفِي	حَديثِ أشْهَرُ مِنْ نارٍ عَلى عَلَمِ

الشرح

بعد أن ذكر جملة من فضل العلم والعلماء ختم بأن فضلهم جاء منصوصًا عليه في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقوله: (**أشهر من نار على علم**) العَلَم: هو الجبل الطويل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى:٣٢]، وقال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤]، فإذا كان على هذا الجبل الطويل نارٌ زاد وضوحًا، وهذه مثلٌ منتشرٌ يُضرب على الشيء المشهور والواضح، فالنصوص التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل العلم والعلماء أشهر من نار على علم.

ذكر في هذه الأبيات جملة من الوصايا النافعة لطالب العلم التي تحث على التزود من العلم والتي هي سبب سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة وهي ثمرة العلم التي من لم يتصف بها لا ينال ثمرة العلم وبركته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦١	يـا طالِـبَ العِلـم لا تَبْغِـي بـه بَـدَلا	فقَدْ ظَفِرْتَ ورَبِّ اللَّوْحِ والْقَلَمِ

الشرح

أي: يا من منَّ الله عليك وأكرمك بالعلم لا تبغي عنه بدلا أي: لا تبغِ بالعلم بدلاً آخر فهو أشرفُ مطلوبٍ وأفضلُ ما تشغل به النفوس وتُمضى به الأوقات.

وقوله: (**فقد ظفرت ورب اللوح والقلم**)، وهذه قسم بالله أن من صبر على العلم واحتسب وجد واجتهد ولم يبغِ عنه بدلاً أنه فاز بأعظم شيء لأنه طريقٌ موصلٌ إلى الجنة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٢	وقَـدِّسِ العِلـمَ واعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ	فِي القَوْلِ والفِعْلِ والآدابَ فَالْتَزِمِ

الشرح

التقديس: هو التنزيه، أي: نزهِ العلم عن كل ما لا يليق به ولا يليق بطلابه وأن يعرف طالب العلم قدر العلم وأن يحترم العلم وحملته في قوله وفعله.

قال القرطبي في "المفهم": وفيه من أدب الفقه التذلل، والتواضع للعالم، وبين يديه، واستئذانه في سؤاله، والمبالغة في احترامه .ا هـ

وقوله: (والآداب فالتزم) أي: التزم بآداب طالب العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٣	واجْهَدْ بِعَزْمٍ قَوِيٍّ لا انْثِنَاءَ لَهُ	لَوْ يَعْلَمُ الْمَرْءُ قَدْرَ العِلْمِ لَمْ يَنَمِ

الشرح

أي: جد واجتهد في تحصيل العلم والعمل به بعزم قوي وفي حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في صلاته: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**»، الحديث[1].

وقوله: (لا انثناء له) أي: لا يثنيك أي: لا يضعفك ولا يُكسلك عنه شيء.

وقوله: (لو يعلم المرء قدر العلم لم ينمِ) أي: لو علم المرء قدر العلم ومكانته وثماره في الدنيا والآخرة لم ينم، أي: نومًا كثيرًا، وليس المقصود أنه ما ينام مطلقًا؛ لأن هذا غير ممكن، والسلف الصالح كان عندهم حرصٌ على العلم، فهذا الإمام البخاري قال عنه محمد بن يوسف البخاري: كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة.

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد برقم: (١٧١١٤)، والنسائي برقم: (١٣٠٤)، وابن أبي شيبة برقم: (٢٩٣٥٨)، وابن حبان برقم: (٩٣٥)، وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٣٢٢٨).

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحياناً، كنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة في كل ذلك يأخذ القداحة، فيوري نارًا، ويسرج، ثم يخرج أحاديث، فيعلم عليها [١] . اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٤	والنُّصْحُ فابْذُلْهُ لِلطُّلابِ مُحْتَسِبًا	في السِّرِّ والجَهْرِ والأُسْتاذَ فَاحْتَرِمِ

الشرح

النصيحة: كلمة يعبر بها عن جملة، وهي إرادة الخير للمنصوح له، ولا يمكن أن يعبر بكلمة واحدة تجمع هذا المعنى غيرها [٢] .

والمعنى أي: قدم النصيحة لطلاب العلم كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** [٣] »، وقال جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : «**بايعت رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم** [٤] ».

---

(١) [انظر السير (١٢/ ٤٠٤)].

(٢) [راجع النهاية (٥/ ٦٣)].

(٣) رواه مسلم برقم (٥٥) عن تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

(٤) [رواه البخاري برقم (٥٧) ومسلم برقم (٥٦)].

وأول ما يبدأ الإنسان به نصحُ نفسه فمن غش نفسه فقلما ينصح غيره كما قال أبو الأسود الدؤلي:

لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثلـه ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فنهها عن غيها ... فإذا انتهت فأنـت حكيـمُ

والنصيحة :هي دأب الأنبياء والمرسلين كلِّهم واعلم أنه لا ينتفه بالنصيحة إلا من أراد الله توفيقه فنوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ نصح قومه فلم ينتفعوا بالنصيحة، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:٣٢]، ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:٣٤].

محتسبًا :للأجر والثواب من الله فيما تقدمه من البذل والنصيحة لطلاب العلم ولغيرهم.

في السر أي: ابذل لهم النصح سراً فهذا أدعى في قبول النصح، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي [(١)] . ا هـ

وقال مسعر بن كدام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي في سر بيني وبينه، فإن النصيحة في الملأ تقريع [(٢)] .ا هـ

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن الناصح ليس له غرضٌ في إشاعة عيوب من ينصح له، وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها؛ ولذلك فإنه ينبغي أن يكون

---

(١) [سنن الدارمي(١/٥٠٦)].

(٢) [الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٩٠)].

سرًّا فيما بين الآمر والمأمور، وأما الإشاعة وإظهار العيوب فهو مما حرمه الله ورسوله، ومن حب إشاعة الفاحشة في المؤمنين [١] .ا هـ

وما أجمل تلك الأبيات الطيبات للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تعهدني بنصحك في الفرادي ... وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتني وعصيت أمري ... فلا تغضب إذا لم تُعط طاعة [٢]

(والجهر) أي: ابذل النصح في الدروس والخطب والمحضرات، وليكن الإنسان حريصًا على إيصال الخير للغير قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** [٣] ».

وهذا البذل في السر والجهر سببٌ في زيادة العلم والبركة فيه، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله تعالى: «**أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك** [٤] ».

وقال الألبيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفاً شددتا

وقال ابن المبارك: من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما موتٌ يُذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان، فيذهب علمه، وقال: أول منفعة العلم أن يفيد بعضهم بعضًا [٥] .

---

(١) [الفرق بين النصيحة والتعيير ص (٣٦)].

(٢) [انظر الفرق بين النصيحة والتعيير ص (٣٩)].

(٣) [رواه البخاري برقم: (١٣)، ومسلم برقم: (٤٥) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

(٤) [البخاري برقم: (٤٦٨٤)، ومسلم برقم: (٩٩٣) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

(٥) [راجع السير: (٨/٣٩٨)].

وقوله: **(والأستاذ فاحترم)** أي: احترم المعلم وهذا أمر مهم جدًا، احترام المعلم، وعدم احتقاره وعدم غيبته، والتنقص منه وكم من طالب علم صرف عن العلم من هذا الباب، فليعرف أحدنا قدر نفسه وليحترم شيوخه، وإن كان يرى أن هناك من هو أعلم من شيخه، فليذهب إليه دون تنقص، ولا طعن للشيخ الذي كان عنده، والله المستعان.

كم لعب الشيطان على كثير من طلاب العلم، يأتي إليهم من باب احتقار المعلم، وأنه ما عنده حصيلة وأنه وأنه إلى آخر ذلك، والواقع خير شاهد على ذلك كم من أناس احتقروا دروس شيوخهم، وأنه ما هو مؤصل فصرفوا، عن العلم أين هم اليوم، فاحذر يا طالب العلم من هذا المزلق الخطير، واعرف قدر نفسك واحترم شيوخَ وعلماء أهل السنةَ وطلبة العلم ولو كان قليل العلم، فإنه يُحترم ولا يُحتقر، فالعبرة بالثبات نسأل الثبات على الإسلام والسنة حتى الممات.

قال العلامة الألباني: هذا؛ ومن أجل النكارة المشار إليها في صدر هذا البحث خرجت الحديث هنا، وبيان عللها، مع أنها تمثل واقع كثير من شباب الصحوة المزعومة اليوم، الذين يرد بعضهم على بعض، ويطعن بعضهم في بعض للضغينة لا النصيحة، ووصل تعديهم وشرهم إلى بعض العلماء وأفاضلهم، ونبزوهم بشتى الألقاب، غير متأدبين بأدب الإسلام: ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه.

ومغرورين بنتف من العلم جمعوه من هنا وهناك، حتى توهموا أنهم على شيء، وليسوا على شيء كما جاء في بعض أحاديث الفتن، وصرفوا قلوب كثير من الناس عنهم، بأقوال وفتاوى ينبئ عن جهل بالغ، مما يذكرنا بأنهم من الذين أشار إليهم النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا**

ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما؛ اتخذ الناس رءوسا جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا [(١)] **».**ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٥	ومَرْحَبًا قُلْ لِمَنْ يَأتِيكَ يَطْلُبُهُ	وفِيهِمِ احْفَظْ وَصايَا المُصْطَفَى بِهِمِ

الشرح

أي: إذا صرت مؤهلاً للتعليم فقُلْ لمن جاءك يطلب العلم عندك: مرحبًا وهي كلمة ترحيبية.

قال ابن الأثير في "النهاية": (٢/ ٢٠٧): أي: لقيتَ رحبا وسعة. وقيل: معناه رحب الله بك مرحبًا، فجعل المرحب موضع الترحيب.ا هـ

قال الفيروز آبادي: الراء والحاء والباء أصل واحد مطرد، يدل على السعة. من ذلك الرحب، ومكان رحب. وقولهم في الدعاء: مرحبا: أتيت سعة [(٢)] .ا هـ

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعمل هذه الكلمة ويرحب بمن جاءه جاء في البخاري برقم: (٥٣)، ومسلم برقم: (١٧)، **عن ابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: من القوم؟ أو من الوفد؟ قالوا: ربيعة قال: مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى.**

وهكذا كان أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرحبون بمن جاءهم جاء في مسند أحمد، برقم: (٧٩٨٦)، عن قيس بن أبي حازم قال: نزل علينا أبو هريرة بالكوفة،

---

(١) متفق عليه.

(٢) [القاموس المحيط: (٢/ ٤٩٩)].

قال: فكان بينه وبين مولانا قرابة، فاجتمعت أحمس قال قيس: فأتيناه نسلم عليه، فقال له أبي: يا أبا هريرة، هؤلاء أنسباؤك أتوك يسلمون عليك وتحدثهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (مرحباً بهم وأهلاً)، وسنده صحيح.

وقوله: (**وفيهم احفظ وصايا المصطفى بهم**) وكأنه يشير إلى حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الناس لكم تبعٌ، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا** [(١)] **»**.

ويغني عنه ما جاء عند الحاكم برقم: (٢٩٨) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**مرحباً بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصينا بكم** [(٢)] **»**

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٦٦	والنِّيَّــةَ اجْعَــلْ لِوَجْــهِ اللهِ خالصَــةً	إنَّ البِنــاءَ بــدونِ الأصْــلِ لَمْ يَقُــمِ

الشرح

أي: اجعل نيتك خالصة لوجه؛ لأن طلب العلم عبادة والعبادة لا تصح إلا بشرطين: الإخلاص والمتابعة فكما أن البناء لا يقوم إلا على أساس فكذلك العمل لا يصح إلا بهذين الشرطين.

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٥٠) وابن ماجه برقم (٢٤٩) وهو حديث ضعيف في سنده أبو هارون العبدي ضعيف.

(٢) وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني رحمه الله في "الصحيحة": (٢٨٠).

فالشيطان يأتي طالب علم يقول: جد واجتهد حتى تعرف وتكون لك منزلةٌ ورياسةٌ وصيت بين الناس والله المستعان، وليكن طلبك للعلم من أجل أن ترفع العلم عن نفسك وعن غيرك .

قال ابن مفلح في "الآداب الشرعية" (٣٧/٢): وقال مهناً: قلتُ لأحمد: حدثنا ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم، قلت: لمن؟ قال: لمن صحت نيته. قلتُ: وأي شيء يصحح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل. اهـ فيحتاج المرء إلى معالجة نيته بين الحين والآخر قال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشدَّ علي من نفسي، مرة علي، ومرة لي [(١)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٧	وَمَـنْ يَكُـنْ لِيَقُـولَ النـاسُ يَطْلُبُـهُ	أَخْسِـرْ بِصَـفْقَتِهِ فِي مَوْقِـفِ النَّـدَمِ

الشرح

أي: من طلب العلم من أجل أن يقول الناس عنه أنه طالب علم أو عالم أو فقيه أو محدث ومن هذه الألقاب، فإن صفقته وتجارته خاسرة يوم القيامة.

وقوله: (**أخسر بصفقته**) **أي:** ما أخسر صفقته يوم القيامة؛ لأنه تكاثر بالعلم وهو أسوأ حالاً من الذي يتكاثر بغير العلم؛ لأنه جعل ما هو سبب للآخرة سببًا للدنيا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتكاثر في كل شيء فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة، فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه

---

(١) [السير **(٢٥٨/٧)**].

التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا وصاحب المال والجاه، استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها [١] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٨	ومَـنْ بـه يَبْتَغِـي الـدُّنْيا فَلَـيْسَ لَـهُ	يَـومَ القِيامَـةِ مِـن حَـظٍّ ولا قَسَـمِ

الشرح

أي: ومن يطلب العلم من أجل الدنيا وحطامها أو سمعة أو من أجل المنزلة والشهرة، ولم يكن قصدُه معرفةَ الحق والعملَ به ويدعو الناس إليه فليس له يوم القيامة من حظ ولا نصيب؛ لأنه تعلم العلم من أجل الدنيا.

وفي "سنن أبي داود" برقم (٣٦٦٤) وابن ماجه برقم (٢٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٢] »، يَعْنِي: رِيحَهَا.

قال ابن رجب رحمه الله: وسبب هذا -والله أعلم- أن في الدنيا جنةً معجلةً، وهي: معرفة الله ومحبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دله علمُه على دخول هذه الجنة المعجلة في الدنيا دخل

---

(١) [عِدة الصابرين، ص(١٨٣-١٨٤)].

(٢) وسنده حسن وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة؛ ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة، فباعها ببعر أو شيء مستقذر، لا ينتفع به، بل حال من يطلب الدنيا بعلمه، أقبح وأقبح وكذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خِداعٌ قبيحٌ جدًا [(١)] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٦٩	كَفَى بِهِ (مَن كانَ) فِي شورَى وهُودِ	إسْراءِ مَوْعِظَـةً لِلحَـاذِقِ الفَهِـمِ

الشرح

أي: يكفي دليلاً على أنه ليس له في الآخرة من نصيب قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ في السور الثلاث، سورة الشورى في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠]، وسورة هود في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ [هود:١٥]، وفي سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا

---

(١) [مجموع رسائل ابن رجب (١/٧٩)].

﴿ [الإسراء:١٨]، فكلها تبين أن من طلب العلم من أجل الدنيا، فإنه ليس له في الآخرة نصيب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه ثلاث مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضًا، ويصدق بعضها بعضًا، وتجتمع على معنى واحد وهو أن من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب ومن كانت الآخرة مراده، ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له [١] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧٠	إِيَّـاكَ واحْـذَرْ مُمَـارَاةَ السَّـفِيهِ بِـهِ	كَـذا مُباهَـاةَ أهْـلِ العِلْـمِ لا تَـرُمِ

الشرح

جاء في "سنن الترمذي" برقم (٢٦٥٤) عن كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ [٢] ». وجاء في سنن ابن ماجه برقم: (٢٥٣) عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ [٣] ».

---

(١) [عدة الصابرين (١٦٦)].

(٢) وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في "صحيح الجامع" برقم: (٦٣٨٣).

(٣) وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم: (٦٣٨٢).

قال السندي رحمه الله في "حاشيته على سنن ابن ماجه" (١/ ١١١): أي: ينوي به تحصيل المال والجاه وصرف وجوه الناس العوام إليه، وجعلهم كالخدم له أو متعجبين ناظرين، إذا تكلم متعجبين من كلامه، إذا تكلم مجتمعين حوله إذا جلس.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧١	فـإنَّ أبْغَـضَ كـلِّ الخَلْـقِ أجْمَعِهِـمْ	إلى الإلَـهِ ألَـدُّ النـاسِ فِي الخِصَـمِ

الشرح

جاء في البخاري برقم: (٢٤٥٧)، ومسلم برقم: (٢٦٦٨) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله: الألد الخصم»، قال في النهاية (٤/ ٤٧٠): أي: الشديد الخصومة واللدد: الخصومة الشديدة.ا هـ.

وقال الحافظ في "الفتح" (١/ ١٨٣): الألد الخصم: هو الدائم الخصومة.ا هـ

فمن كان على هذا الحال، فهو أبغض الناس إلى الله قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤] .

قال القرطبي في "تفسيره" عند هذه الآية: والمعنى أشد المخاصمين، خصومة، أي: هو ذو جدال، إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة، وباطنه باطل، وهذا يدل على أن الجدال لا يجوز إلا بما ظاهره وباطنه سواء.ا هـ

وقد جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقرآن الكريم لينذر ويخوف من كان على هذا الحال، قال سبحانه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم:٩٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧٢	والعُجْبَ فاحْذَرْهُ إنَّ العُجْبَ مُجْتَرِفٌ	أعْمالَ صاحِبِهِ في سَيْلِهِ العَرِمِ

الشرح

أي: احذر من العجب وهو رؤية النفس والتعالي على الغير والترفع عليهم وقد سئل ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العجب فقال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العجب [(١)] .ا هـ

فالعجب خلق ذميم وصفة سيئة، وقد خشي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته من العجب قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك؛ العجب**»[(٢)].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن العاصي يعترف بنقصه فترجى له التوبة والمعجب مغرور بعمله فتوبته بعيدة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.ا هـ

وقوله: (**إن العجب مجترف أعمال صاحبه في سيله العرم**)، شبه العجب بالسيل الجارف العرم، وهو الشديد، ومن قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦]، فالعجب يجرف على الإنسان أعماله الصالحة جاء في "**الأدب المفرد**" برقم: (٥٤٩) **ومسند**

---

(١) [انظر السير (٨/٤٠٧)].

(٢) رواه البزار في "مسنده" برقم (٦٩٣٦)، عن أنس وهو حديث حسن بشواهده، وقد حسنه العلامة الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" برقم (٢٩٢١).

أحمد برقم: (٥٩٩٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من تعظم في نفسه أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان [١] ».

وجاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يظهرُ هذا الدّين حتى يجاوز البحار، وحتى تُخاض بالخيل في سبيل الله، ثُمَّ يأتي أقوامٌ يقرءون القرآن، فإذا قرءوا، قالوا: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأُ منا؟ من أعلمُ منا؟! ثم التفت إلى أصحابه، فقال: هل ترون في أولئك من خير؟ قالوا: لا. قال: فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار [٢] .

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: آفة القراء العجب [٣] .ا هـ

وقال الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: عجبتُ لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر [٤] .ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٧٣	وبِالْمُهِمِّ الْمُهِمِّ ابْدَأْ لِتُدْرِكَهُ	وَقَدِّمِ النَّصَّ والآرَاءَ فَاتَّهِمِ

الشرح

هذه وصيةٌ عظيمةٌ وقيمة وهي التدرجُ في طلب العلم، وأن يبدأ بالأهم فالأهم؛ لأن العمر لا يستوعب كل شيء، قال الزهري: من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديث وحديثان [١] .ا هـ .

---

(١) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٥٤٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٦٢٤٢) وهو في الصحيحة برقم: (٣٢٣٠).

(٣) [السير (٨/ ٤٤٢)].

(٤) [السير (٤/ ٩٢)].

وكما قيل:

اليوم شيءٌ وغداً مثلُه من نخب العلم التي تلتقط
يحصل المرء بها حكمة وإنما السيل اجتماع النقط

فكثيرٌ من طلبة العلم ضيعوا أعمارهم وأوقاتهم، وما تدرجوا في طلب العلم، فربما انقطع أحدهم وترك طلب العلم والسبب هو عدم التدرج في العلم، وعدم سؤال الله التوفيق، وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]: الذي يربي الناس صغار العلم قبل كباره، في صحيح البخاري تحت (باب العلم قبل القول والعمل).

قال الحافظ في الفتح: أي: بالتدريج.ا هـ.

فالعلم كثير فيأخذ طالبُ العلم من علوم الآلة شيئًا، والأصل هو علم القرآن والسنة قال الشاعر:

ما حوى العلم جميعاً أحد لا ولـو مارسهُ ألفَ سنة
إنمـا العلمُ كبحـرٍ زاخرٍ فاتخذْ مِنْ كلِّ فَنٍّ أحسنه

وقوله: (**وقدم النص والآراء فاتهم**)، وهذه نصيحةٌ وحثٌ بتقديم القرآن والسنة على الآراء، فالواجب هو تقديم النصوص الشرعية على الرأي والعقل وكان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقدمون النص على الرأي **جاء عن أبي وائل، قال: كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق**

=(١) [الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٣٢)].

وهم على الباطل؟ فقال: «بلى». فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى»، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا»، فانطلق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال له مثل ما قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى آخرها، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم» [(١)] .

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه» [(٢)] .

والمقصود بالآراء هنا: التي تخالف النصوص، اتهمها ولا تتهم النصوص.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٧٤	قَـدِّمْ وُجوبًـا عُلـومَ الـدِّينِ إنَّ بِهـا	يَبِينُ نَهجُ الهُدَى مِن مُوجِبِ النِّقَمِ

الشرح

أي: قدم العلوم المتعلقة بالدين وخاصة ضروريات الدين على العلوم الدنيوية وجوبًا، وليس مستحبًا، فإنه إن قدم علوم الدين (يبين نهج الهدى من موجب

---

(١) رواه البخاري برقم (٣١٨٢)، ومسلم برقم (١٧٨٥).

(٢) رواه أبو داود برقم (١٦٢)، وسنده صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في صحيح، وضعيف سنن أبي داود والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٩٦٧).

النقم) يظهر طريق الهدى ويميز بين الحق والباطل والهدى والضلال والتوحيد والشرك والسنة والبدعة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧٥	وكـلُّ كَسْـرِ الفَتَـى فالـدِّينُ جـابِرُهُ	وَالكَسْرُ فِي الدِّينِ صَعْبٌ غَيْرُ مُلْتَئِمِ

الشرح

أي: كل مصيبة يصاب بها الإنسان في غير الدين فإن الدين يجبرها قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له** [(١)] **»**.

وقوله: (والكسر في الدين صعب غير ملتئم)، والمصائب تتفاوت وأعظمها المصيبة في الدين وكان من دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا**»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر، فإن لم يكن فوقها محنة في البدن، والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده، وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة وأنها في الحقيقة نعمةٌ والمصيبة الحقيقية مصيبة الدين [(٣)]. اهـ

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩) عن صهيب بن سنان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

(٢) (حديث حسن). أخرجه الترمذي برقم (٣٥٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٤٠١)، وسنده حسن وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي تحت الرقم المذكور.

(٣) [مدارج السالكين (٢/٣٠٦)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧٦	دَعْ عَنْكَ ما قالَهُ العَصْرِيُّ مُنْتَحِلا	وبالعَتِيقِ تَمَسَّكْ قطُّ واعْتَصِم

الشرح

أي: اجتنب واحذر ما يقوله أهل العصر الذين ليسوا على نهج السلف الصالح، وأما العالم الذي من أهل العصر، وهو على طريقة السلف فإنه يؤخذ عنه العلم؛ لأنه أهل لأن يؤخذ عنه.

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وقوله: (منتحلاً) أي: ينتسب إلى العلم والسنة وليس كذلك فهذا يترك ويجتنب.

وقوله: (وبالعتيق تمسك قط واعتصم) أي: تمسك واعتصم دائمًا بالعتيق، أي: بالقديم الأول كما في "النهاية لابن الأثير" (٣/ ٣٨٩)، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من كان مستناً فليسن بمن قد مات؛ فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة».ا هـ

وقال: اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم عليكم بالأمر العتيق.ا هـ

وقال العلامة الألباني رحمه الله في [الضعيفة: (١٩/٢)]: فعليكم أيها المسلمون بالسنة تهتدوا وتفلحوا.ا هـ

فالعلم الحقيقي والعلم النافع: هو علم كتاب وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يظهر بهذا العلم كل مخفي ويعرف الإنسان الحلال من الحرام وكما قيل:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس خلف فيه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين النصوص وبين رأي سفيه

كلا ولا نصب الخلاف جهالة بين الرسول وبين رأي فقيه

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٧٧	مـــا العِلْـــمُ إلا كِتـــابُ اللهِ أو أثَـــرٌ	يَجْلـــو بِنُـــورِ هُـــداهُ كـــلَّ مُنْـــبَهِمِ
٧٨	مَا ثَمَّ عِلْمٌ سِوى الوَحْيِ المُبِينِ ومَا	مِنْـــهُ اسْـــتُمِدَّ ألا طُـــوبَى لِمُغْتَـــنِمِ

الشرح

أي: ما هناك علمٌ نافع إلا العلم المتعلق بالوحي وعلم القرآن والسنة، والسنة وحي، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٤]، «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه** [(١)] »،

وقوله: (وما منه استمد) أي: وما كان مستمدًا من الوحي، ومتعلقًا بالقرآن والسنة.

وقوله: **(ألا طوبى لمغتنم)**، اختلف في تفسير طوبى قال ابن كثير "تفسيره" **(٤/ ٣٩١)**: قال ابن أبي طلحة: عن ابن عباس: فرح وقرة عين، **وقال عكرمة:** نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، **وقال قتادة:** هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيرا، **وقال في رواية:** طوبى لهم حسنى لهم، وحسن مآب أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها.ا هـ

قلتُ: ثبت في مسند أحمد برقم: (١١٦٧٣)، عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «طوبى شجرةٌ في الجنة مسيرةُ مائة عام ثيابُ أهل الجنة تخرجُ**

---

(١) رواه أحمد برقم: (١٧١٧٤)، عن المقدام بن معدي كرب الكندي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وسنده صحيح.

من أكمامها [١] »، وفي البخاري برقم: (٣٢٥٢)، ومسلم برقم: (٢٨٢٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن في الجنةِ لشجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائةَ سنة»، وجاء عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادُ المضمرُ السريع، مائة عام ما يقطعُها [٢] »، وفي البخاري برقم: (٦٥٥٢)، ومسلم برقم: (٢٨٢٧)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن في الجنة لشجرةً، يسيرُ الراكبُ في ظلها مائة عام، لا يقطعُها».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٧٦	والكَتْمُ لِلعِلْمِ فاحْذَرْ إنَّ كاتِمَهُ	فِي لَعْنَةِ اللهِ والأقْوامِ كلِّهِمِ

الشرح

أي: احذر من كتم العلم فإن كاتمَ العلم ملعونٌ قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩].

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره": (١/ ٣٤٢): هذا وعيدٌ شديدٌ لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسله.ا هـ

---

(١) وهو حديث حسن بشواهده حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (١٩٨٥).

(٢) رواه البخاري برقم: (٦٥٥٣)، ومسلم برقم: (٢٨٢٨).

وقال القرطبي رحمه الله: وبها استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق، وتبيان العلم على الجملة، دون أخذ الأجرة عليه، إذ لا يستحق الأجرة على ما عليه فعله، كما لا يستحق الأجرة على الإسلام، وقد مضى القول في هذا.

وتحقيق الآية هو: أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أنه مع غيره، وأما من سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث [١] .ا هـ

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثًا، ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ إلى قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠] [٢] .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٨٠	ومِـن عُقوبَتِـهِ أنْ فِي المَعـادِ لَـهُ مِـنَ	الجَحـيمِ لِجَامًـا لَـيْسَ كَـاللُّجُمِ

الشرح

أي: ومن عقوبة كاتم العلم أنه يوم القيامة يُلجم بلجام، ولكن ليس كاللجم المعروفة في هذه الدنيا التي تكون من الجلد وغيره، ولكنه لجامٌ من نار كما جاء عن

---

(١) [تفسير القرطبي (٢/١٨٥)].

(٢) رواه البخاري برقم (١١٨)، ومسلم برقم: (٢٤٩٣)، وهذا لفظ البخاري.

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[١].

وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٢].

فالواجب على كل من أكرمه الله بشيء من العلم: أن يبينه للناس وأن يعلمهم ولا يكتم شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية: وفي هذا تحذيرٌ للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».ا هـ

---

(١) صحيح. رواه أبو داود برقم (٣٦٥٨) والترمذي برقم (٢٦٤٩) وابن ماجه برقم (٢٦٦) وأحمد برقم (٧٥٧١) وهو حديث صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٢٨٤) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند برقم (١٣٦٤).

(٢) حسن. رواه الحاكم برقم (٣٤٦)، وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" برقم (١٢١) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٧٨٩).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨١	وصـائِنُ العِلْـم عمَّـنْ لَـيْسَ يَحْمِلُـهُ	مـا ذا بِكِـتْمانِ بـلْ صَـوْنٌ فَـلا تَلُـمِ

الشرح

أي: الذي يصون العلم من الذي يسأل لمآربٍ وإشاعةِ شيء وأشياء أُخرى، فهذا لا يجاب وليس هذا من كتمان العلم.

وقوله: (فلا تلم) أي: لا تلم العالم إذا صان العلم ولم يبينه لهذا الغرض.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٢	وإنَّـمَا الكَـتْمُ مَنْـعُ العِلْـم طالِبَـهُ	مِـن مُسْـتَحِقٍّ لَـهُ فَـافْهَمْ ولا تَهِـمِ

الشرح

أي: وإنما الذي يأثم الذي يكتم العلم من مستحق له وهو طالب العلم وأما إن كان غير مستحق له فلا يعد كتما، وإنما هو صيانة للعلم.

وقوله: (ولا تهم) أي: لا تقع في الخطأ وتخلط بين الأمور ففرق بين كتم العلم وبين صيانة العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٣	وأتْبِـع العِلْـمَ بـالأعْمالِ وادْعُ إلَى	سَـبيلِ ربِّـكَ بالتِّبْيـانِ والحِكَـمِ

الشرح

أي: عليك بالعناية بالعمل بالعلم فإنه هو المقصود من العلم جاء عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لا تزول قدما عبد يوم**

القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه [(١)] »،

وقد ذم الله تعالى من لم يعمل بعلمه، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]، وجاء في "الصحيحين" عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلقُ أقتابُ بطنه، فيدور بها كما يدورُ الحمارُ بالرحى، فيجتمعُ إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه [(٢)] ».

قال سفيان الثوري: ما بلغني عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديث قط، إلا عملت به ولو مرة [(٣)] .ا هـ

وقال أحمد رحمه الله: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم، وأعطى أبا طيبة دينارا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت [(٤)] .ا هـ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٤١٧)، وجاء أيضًا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فالحديثُ حسنٌ بشواهده، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٩٤٦).

(٢) [رواه البخاري برقم (٣٢٦٧) ومسلم برقم (٢٩٨٩)].

(٣) [انظر السير: (٧/ ٢٤٢)].

(٤) [انظر السير (١١/ ٢١٣)].

وقال عمرو بن قيس الملائي، يقول: (إذا بلغك شيءٌ من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله) [(١)] .ا هـ

وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علمًا ينفعني**»[(٢)]، ومن أحسن من ألف في هذا الباب اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، قال رَحِمَهُ اللَّهُ ص (١٤.١٣): ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالما من لم يكن بعلمه عاملاً، **وقيل**: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قل نصيبك منهما، وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته والقليل من هذا مع القليل من هذا أنجى في العاقبة إذا تفضل الله بالرحمة، وتمم على عبده النعمة، فأما المدافعة والإهمال وحب الهوينى والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة والميل مع الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال ذميمة، وعقباها كريهة وخيمة، والعلم يراد للعمل كما العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا عن العلم، كان العلم

---

(١) [انظر الجامع لأخلاق الراوي والسامع: (١/ ١٤٤)].

(٢) (**حديث حسن**). أخرجه النسائي في الكبرى برقم (٧٨١٩) والطبراني في الدعاء برقم (١٤٠٥) والحاكم برقم (١٨٧٩) والبيهقي في الدعوات برقم (٢٤١) وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (٣١٥١).

كلا على العالم، ونعوذ بالله من علم عاد كلا، وأورث ذلا، وصار في رقبة صاحبه غلا. اهـ

فالله سبحانه أمر بالدعوة إليه على بصيرة وبحكمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي.اهـ

فلا أحسن من الذي يدعو إلى الله، لكن على علم وحكمة ليس كجماعة التبليغ يدعون إلى الله على جهل وبدع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٨٤	واصْبِرْ عَلى لاحِقٍ مِنْ فِتْنَةٍ وأذَى	فِيهِ وفِي الرُّسْلِ ذكرى فاقْتَدِهْ بِهِمِ

الشرح

أي: اصبر على ما يلحقك من أذى وفتنة من آثار الدعوة إلى الله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ

عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢].

وقوله: (وفي الرسل ذكرى فاقتده بهم)، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٣/ ٢٦٨): ثم قال تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولئك يعني: الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، وهم الأشباه، الذين هدى الله أي: هم أهل الهدى لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾، أي اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمرا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمته تبع له، فيما يشرعه ويأمرهم به.ا هـ

وخلاصة هذه الأبيات في وصية طالب العلم أربعةُ أمور:

١ـ طلبُ العلم والسعي في تحصيله.

٢ـ العملُ به.

٣ـ الدعوةُ إليه.

٤ـ الصبرُ على الأذى فيه.

وهذه الأمور جمعت في سورة العصر قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، قال الشافعي: لو تدبر الناسُ هذه السورة لوسعتهم [(١)] .ا هـ

---

(١) [تفسير ابن كثير (٨/٤٥٦)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٥	لَواحِـــدٌ بِـــكَ يَهْدِيـــهِ الإلَـــهُ لَـــذَا	خَـيْرٌ غَـدًا لـكَ مِـنْ حُمْرِ مِـن الـنَّعَمِ

الشرح

جاء هذا في حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم خيبر: «**فو الله لأن يهدى بك رجل واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم** [(١)] ».

قال النووي: هي الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه، وقد سبق بيان أن تشبيه أمور الآخرة بأعراض الدنيا، إنما هو للتقريب من الأفهام وإلا فذرة من الآخرة الباقية خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها لو تصورت، وفي هذا الحديث: بيان فضيلة العلم والدعاء [(٢)] . اهـ

وقال القرطبي في "المفهم" (٢٠/٢٨): حق عظيم على تعليم العلم وبثه في الناس، وعلى الوعظ والتذكير بالدار الآخرة والخير، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «**إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير**».

والهداية: الدلالة والإرشاد.

والنعم: هي الإبل، وحمرها هي خيارها حسنًا وقوة ونفاسة؛ لأنها أفضل عند العرب، ويعني به -والله أعلم- أن ثواب تعليم رجل واحد، وإرشاده للخير

---

(١) [رواه البخاري برقم (٣٠٠٩) ومسلم برقم (٢٤٠٦)].

(٢) [شرح مسلم (١٥/١٧٨)].

أعظم من ثواب هذه الإبل النفيسة لو كانت لك فتصدقت بها؛ لأن ثواب تلك الصدقة ينقطع بموتها ، وثواب في العلم والهدى لا ينقطع إلى يوم القيامة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة**»، فذكر منها : «**علم ينتفع به** ».ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "مفتاح دار السعادة" (١/ ٦٢): وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث، إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرًا له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها، فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طوائف من الناس.ا هـ

وقوله: (غدًا) والمراد بها يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾ [الحشر:١٨].

قال القرطبي في تفسيره عند هذه الآية: يعني: يوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة، كما قال الشاعر:

أَلَم تَرَ أَنَّ اليومَ أسرعُ ذاهب وأَنَّ غداً للنّاظرين قريبُ

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغد، ولا شك أن كل آتٍ قريب، والموت لا محالة آت.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٨٦	واسْلُكْ سَواءَ الصِّراطِ المسْتَقِيم ولا	تَعْدِلْ وقُلْ ربِّيَ الرحْمنُ واسْتَقِمِ

الشرح

أي: الزم الصراط المستقيم وهو الإسلام والسنة، ولا تتبع الأهواء والبدع، قال سبحانه: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ**

وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**خط لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً قال: ثم خط عن يمينه وعن شماله، ثم قال: هذه السبل، ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطان يدعو إليه،** ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [١] ».

قال ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٢٢٩): إنما وحد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].ا هـ

وقال القرطبي في "تفسيره" (٧/ ١٣٧): **والصراط**: الطريق الذي هو دين الإسلام.

(مستقيما) نصب على الحال، ومعناه مستويًا قوياً لا اعوجاج فيه.

فأمر باتباع طريقه الذي طرقه على لسان نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرعه ونهايته الجنة.

وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار.ا هـ **وقوله: (وقل: ربي الرحمن واستقم)** قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٧/ ١٦٠) أي: أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.ا هـ

---

(١) رواه أحمد برقم **(٤٤٣٧)**، وسنده حسن وقد حسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم: **(٨٣٦)**.

وفي "صحيح مسلم" برقم (٣٨) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: «قلت: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟ قال: قل: آمنت بالله ثم استقم »، وفي الترمذي برقم: (٢٤١٠) وابن ماجه برقم (٣٩٧٢)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قال: «قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، قال: قل: ربي الله ثم استقم»، وهو حديث صحيح.

وقال ابن رجب: الذين قالوا: ربنا كثير ولكن أهل الاستقامة قليل، كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبته: اللهم اعصمنا بحفظك، وثبتنا على أمرك. فالاستقامة والثبات، لا قدرة للعبد عليه بنفسه، فلذلك يحتاج أن يسأل ربه [١] .ا هـ

(١) [انظر مجموع الرسائل: (١/ ٣٣٩)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٧	وَبَالتَّـــدَبُّرِ والتَّرتِيـــلِ فَاتْـــلُ كِتَـــا	بَ اللهِ لاسِيَّما في حِنْدسِ الظُّلَمِ

الشرح

وهذه وصية عظيمة بتلاوة كتاب الله وتدبره وقد أمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلاوته وترتيله وهو أمرٌ له ولأمته قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال القرطبي في "تفسيره" (١٠/ ٣٩٠): (اتل): أمرٌ من التلاوة والدءوب عليها.ا هـ

وقال سبحانه: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل:٤] .

قال القرطبي في "تفسيره" (١٩/٣٧) :أي: لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني. ا هـ

وقال ابن كثير في "تفسيره" (٨/ ٢٦١): أي اقرأه على تمهل فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. ا هـ

قلتُ: وقد أمر الله بتدبره، فقال ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء:٨٢]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:٢٩]، ومدح الله الذين يتدبرونه، فقال: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة:١٢١].

وقوله: (**لا سيما في حندس الظلم**) الحندس بالكسر هو الليل المظلم أي: ولا سيما في آخر الليل، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، ومدح الله أمة من أهل الكتاب، أنهم يتلون آيات آناء الليل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:١١٣]، **وقال النووي:** فصل في الأوقات المختارة لتلاوة القرآن.

اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة، ومذهب الشافعي وغيره أن تطويل القيام في الصلاة أفضل من تطويل السجود وغيره، وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير من الليل أفضل من النصف الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح، ولا كراهية في القراءة في وقت من الأوقات لمعنى فيه، وأما ما رواه ابن أبي داود عن معاذ بن رفاعة، عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر، وقالوا هي دراسة اليهود فغير مقبول، ولا أصل له، ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من ذي الحجة، ومن الشهور رمضان [(١)] .ا هـ

---

(١) [التبيان: (١٥٥).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٨	حَكِّمْ بَراهِينَهُ واعْمَلْ بِمُحْكَمِهِ	حِلاًّ وحَظْرًا ومَا قَدْ حَدَّهُ أَقِمِ

الشرح

قوله: (**حكِّمْ براهينه**) أي: تحاكمْ إلى حججه فيما تأتي وتذر، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ [الشورى:١٠].

قوله: (**واعمل بمحكمه**) المحكم هو البين والواضح الدلالة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران:٧].

قوله: (**حلا وحظرًا**) **أي**: تعمل به في الحلال والحرام، والمراد بالحظر، أي: الممنوع، ومن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠].

قوله: (**وما قد حده أقم**) أي: أقم حدود القرآن، ولا تكن قراءتك له إقامة لحروفه فقط بل أقم حروفه وحدوده، وافعل ما أمرت به واترك ما نهيت عنه، وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَفِينَا الْأَعْرَابِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ، فَقَالَ: «**اقْرَءُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ وَسَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يُقِيمُونَهُ كَمَا يُقَامُ الْقِدْحُ يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**» [(١)].

---

(١) [رواه أبو داود وهو في "الصحيح المسند" برقم: (٢٣٦)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٨٩	واطْلُبْ مَعانِيهِ بالنَّقْلِ الصّريح ولا	تَخُضْ بِرَأْيِكَ واحْذَرْ بَطْشَ مُنْتَقِمِ

الشرح

أي: ابحث عن معاني القرآن، وتفسيره بالنقل الصريح والقرآن يفسر بالقرآن ويفسر بالسنة، ويفسر بأقوال الصحابة، وباللغة العربية.

قوله: (**ولا تخض برأيك واحذر بطش منتقم**)، وهذا تحذير شديد من الخوض في القرآن بالرأي، فإن هذا لا يجوز، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٠	فَمَا عَلِمْتَ بِمَحْضِ النَّقْلِ مِنْهُ فَقُلْ	وَكِلْ إِلَى اللهِ مَعْنَى كُلِّ مُنْبَهِمِ

الشرح

أي: ما اتضح لك معناه وعرفت مقصوده باعتمادك على النقل، أي: الدليل فقل: هذا معناه كذا، ودليل ذلك كذا، وهذه طريقة أهل العلم.

وقوله: (وكل إلى الله معنى كل منبهم) أي: فما خفي عليك معناه أو اشتبه عليك فردَّ وفوِّض معناه إلى الله فتقول: الله أعلم.

جاء في البخاري برقم (٤٨٠٩) ومسلم برقم (٢٧٩٨) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ: لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٩١	ثُــمّ المِْــرَا فيــه كُفْــرٌ فاحْذَرَنْــهُ ولا	يَسْــتَهْوِيَنَّكَ أقــوامٌ بِــزَيْغِهِم

الشرح

أي: الجدال والخصومة في القرآن بالباطل التي تؤدي إلى التكذيب والشك واعتقادات باطلة حكمها كفر، جاء ذلك في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«المراء في القرآن كفر [(١)]»**.

وروى أبو داود الطيالسي برقم: (٢٤٠٠)، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر [(٢)]».

---

(١) رواه أبو داود برقم: (٤٦٠٣)، وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (١٣١٨).

(٢) وهو حديث حسن بشواهده، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٢٤١٩).

قال النووي رحمه الله: يحرم المراء في القرآن والجدال فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه، ويحتمل احتمالاً ضعيفًا موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه ويناظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول، وأما من لا يظهر له ذلك فهو معذور [(١)] .ا هـ

وقوله: (**فاحذرنه**) أي: احذر من المراء في القرآن، فإنه يفضي إلى الكفر بالله سبحانه وتعالى وقد قال الله: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

وقوله: (**ولا يستهوينك أقوام بزيغهم**)، وهذا تحذير من أهل الزيغ، فإنهم يزينون ما عندهم من الباطل والضلال بزخرفة القول، فيفتنون ضعاف الإيمان والعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٢	وعنْ مَناهِيهِ كُنْ يا صاحِ مُنْزَجِرًا	والأمْرُ منهُ بلا تِرْدادِ فالْتَزِمِ

الشرح

أي: كن بعيدًا ومنتهيًّا عن ما نهاك الله به في القرآن، فاجتنب النهي مباشرة.

وقوله: (**يا صاح**) أي: يا صاحبي، وهذا ما يسمى بالترخيم في النداء، وهو حذف آخر المنادى تخفيفاً كما قال ابن مالك في "الألفية":

ترخيماً احذف آخر المنادى ... كيا سعا فيمن دعا سعادا

---

(١) [التبيان ص (١٦٨)].

وقوله: **(والأمر منه بلا ترداد فالتزم)** أي: امتثل ما أُمرت به وحافظ عليه والتزم به بدون تردد، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وإذا سمعت الله، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فارعها سمعك، فإنه خير يؤمر به، أو شر ينهى عنه [(١)] .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٩٣	ومـــا تَشـــابَهَ فَـــوِّضْ لِلإلـــهَ وَلا	تَخُضْ فَخَوْضُكَ فيه مُوجِبُ النِّقَمِ

الشرح

هذا هو المنهج القويم في آي القرآن الكريم في أن المتشابه يفوض علمه إلى الله، فالقرآن فيه آيات متشابهات، وفيه آيات محكمات، فالمتشابه هو الذي يشتبه فيه المعنى، ولا تظهر فيه الدلالة بخلاف المحكم، فهو الواضح المعنى، وهذا التشابه في الحقيقية تشابهٌ نسبي وليس مطلقًا، يعني: قد يخفى معنى الآيات على بعض الناس، وليس على كلهم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:٧]، راجع تفسير الآية.

---

(١) رواه أبو نعيم في "الحلية" (١/ ١٣٠)، ولكن فيه انقطاع فمعن هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يدرك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٤	ولا تُطِعْ قولَ ذي زيغٍ يُزَخْرِفُهُ	مِنْ كُلِّ مُبْتَدِعٍ في الدين مُتَّهَمِ

الشرح

وهذا تحذير من متابعة الزائغين والمبطلين وأهل الأهواء، فقد حذرنا ربنا منهم فقال: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، فإن من عادة أهل الزيغ زخرفة ما عندهم من الأقاويل والأباطيل، وقد جاء في مسلم برقم: (٢٦٦٥)، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: تلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧]، قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**».

وقوله: (**من كل مبتدع في الدين متهم**) أي: واحذر من أهل البدع والأهواء، الذين هم متهمون في فساد في عقيدتهم ومنهجهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٥	حَيْرانَ ضلَّ عنِ الحقِّ المُبينِ فلا	يَنْفَكُّ مُنْحَرِفًا مُعْوَجّ لَمْ يَقُمِ

الشرح

هذا وصف أهل الزيغ أنه حيران في شك وتيه عن الحق الواضح البين، كالشمس في رابعة النهار.

وقوله: (**فلا ينفك منحرفاً معوج لم يقم**) أي: هو دائما وأبداً منحرفٌ ومعوجٌ عن الصراط المستقيم.

قوله: (**لم يقم**) لم يستقم على صراط الله المستقيم، بل انصرف عن الحق فكثير من المبتدعة في آخر حياتهم أعلنوا أنهم في حيرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٦	هُـوَ الكِتـابُ الـذي مَـن قـامَ يَقْـرَؤُهُ	كَـأَنَّما خاطَـبَ الـرَّحْمَنَ بـالكَلِمِ

الشرح

أي: من قام يقرأ كتاب الله، فكأنما يخاطب الرحمن؛ لأنه يقرأ كلامه، وتأمل ما جاء في "**صحيح مسلم**" برقم: (٣٩٥) **عن أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: سمعت رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، قال: مجدني عبدي – وقال مرة فوض إلي عبدي – فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "كتابه الصلاة" (١٤٢): فو الله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدني عبدي وأثنى علي عبدي ومجدني عبدي.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٧	هُـوَ الصِّـراطُ هُـو الْحَبْـلُ الْمَتِينُ هُـوَ الْ	ميزانُ والعُرْوَةُ الوُثْقَى لِمُعْتَصِمِ

الشرح

أي: القرآن صراط الله المستقيم الذي أُمِرَ الناسُ باتباعه جاء عن النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال: «**ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيما، وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مُرخاة وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم** [(١)] ».

وقوله: (هو الحبل المتين) الذي من اعتصم وتمسك به نجا كما قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ومما يبين أن المراد بحبل الله القرآن ما جاء في مسلم برقم: (٢٤٠٨) عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما: كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من اتبعه**

---

(١) رواه أحمد برقم (١٧٦٣٤) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٨٨٧) والوادعي في الصحيح المسند برقم (١١٧٩).

كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة»، وجاء في "مسند أحمد" عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود بين السماء والأرض** [(١)] **»**.

وقوله: (هو الـميزان) الذي يتحاكم إليه قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]، وقوله: **والعروة الوثقى** كما قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

قال ابن كثير في "تفسيره" (١/ ٥٢٢): أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثلى، والصراط المستقيم.ا هـ

وقوله: (لمعتصم) فمن أراد أن يسلم من الفتن، فليعتصم بكتاب بالله فهو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين والميزان القويم والعروة الوثقى.

---

(١) وفيه عطية ضعيف وأخرجه الترمذي وهو مقرون عنده بحديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وفيه حبيب بن أبي ثابت مدلس، فالحديث حسن لغيره بمجموع الطريقين، ويشهد له حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قبله، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: **(٢٠٢٤)**.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٨	هُـو البَيـانُ هُـو الـذِّكْرُ الْحَكِيمُ هُـوَ الـتْ	تَفْصِـيلُ فـاقْنَعْ بِـهِ فِي كُـلِّ مُنْـبَهِمِ

الشرح

قوله: (هو البيان) كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، فالله نزل القرآن من أجل إيضاح وتبين كل شيء قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، وقد أخبر سبحانه أنه سيوضحه له، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٨/ ٢٨٦): أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. ا هـ

وقوله: (هو الذكر الحكيم) كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:٥٨] .

قال ابن الأثير في "النهاية": (١/ ١٠٢٣): أي: الحاكم لكم وعليكم أو هو المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب فعيل بمعنى مفعل أحكم فهو محكم.ا هـ

وقوله: (هو التفصيل) قال سبحانه: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:٣٧].

وقوله: (فاقنع به في كل منبَهم) أي: اقنع بالقرآن ولو خفي عليك بعض المعاني فالقناعة نعمة من القرآن، ومن أعظم القناعة القناعة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٩٩	هُـــو البَصـــائِرُ والـــذكرَى لِمُـــدَّكِرِ	هو المْواعِظُ والبُشْرى لِغَيرِ عَمِي

الشرح

هو **البصائر** كما في قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقال: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:٢٠]، **قال القرطبي في "تفسيره" (٧/ ٣٥٣):** يعني: القرآن، جمع بصيرة، هي: الدلالة والعبرة، أي هذا الذي دللتكم به على أن الله عز وجل واحد. بصائر، أي: يستبصر بها.ا هـ

قوله: (والذكرى لمدكر) كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، فالقرآن موعظة لمن أراد أن يتذكر أو يتعظ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٢١]، فالله يسر القرآن من أجل أن يتذكر الناس، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

وقوله: (هو المواعظ) كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور:٣٤].

وقوله: (والبشرى)، كما قال سبحانه: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[النحل:٨٩]، وقال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف:١٢].

وقوله: (لغير عمي) عن الحق فلا ينتفع ببصائر القرآن ومواعظه وتذكيراته وبشائره إلا من كان غير عمي عن الحق، أما من كان عميًا عن الحق فلا ينتفع من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٠	هُــو المُنَــزَّلُ نُــورًا بَيِّنًــا وهُــدًى	وهو الشِّفاءُ لِما فِي القَلْبِ مِن سَقَمِ

الشرح

قوله: (هو المنزل نورًا بينًا) كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

قال القرطبي في "تفسيره" (٦/ ٢٧): والنور المنزل هو القرآن، وسماه نورًا؛ لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بين. اهـ

وقوله: (وهدىً) كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]. وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٥/ ٤٥): يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح

السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه، أن لهم أجرًا كبيرًا، أي يوم القيامة.ا هـ

وقوله: (وهو الشفاء لما في القلب من سقم) أي: أن القرآن شفاء لأمراض القلوب والأبدان، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠١	لَكِنَّـــهُ لِأُولي الإيـــمانِ إذْ عَمِلُـــوا	بِـما أتَى فِيـه مِـنْ عِلْـمٍ ومِـنْ حِكَـمِ

الشرح

أي: أن القرآن شفاء لأولي الإيمان وليس لكل أحد بل لأهل الإيمان الذين عملوا بما فيه من علم ومن حكم وهذا استثناء طيب من الناظم قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" (٥/ ١٠٣): يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو القرآن الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، أي: يذهب ما في القلب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة

وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٢	أمَّا عَلى مَن تَوَلّى عنه فهو عَمًى	لِكَوْنِهِ عَنْ هُداهُ المُسْتَنيرِ عُمِي

الشرح

يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، فلم يستفد ولم ينتفع من القرآن لأنه عمي عن الحق والواضح البين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٣	فمَنْ يُقِمْهُ يَكُنْ يَومَ المَعادِ لَهُ	خَيرَ الإمامِ إلَى الفِرْدَوسِ والنِّعَمِ

الشرح

أي: من أقام القرآن علما وعملاً، فإنه يكون له يوم القيامة إمامًا وقائدًا إلى جنة الفردوس وجنات النعيم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٤	كَمَا يَسُوقُ أولي الإعْراضِ عنهُ إلَى	دارِ المَقامِعِ والأنْكالِ والألَمِ

الشرح

أي: فكما أن القرآن يكون إماما لمن أقامه فكذلك يسوق من أعرض عنه إلى النار دار المقامع كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج:٢١].

قال القرطبي في "تفسيره" (١٢/ ٢٥): أي يضربون بها ويدفعون، الواحدة مقمعة، ومقمع أيضا كالمحجن، يضرب به على رأس الفيل. وقد قمعته إذا ضربته بها. وقمعته وأقمعته بمعنى، أي قهرته وأذللته فانقمع. قال ابن السكيت: أقمعت الرجل عني إقماعا إذا طلع عليك فرددته عنك. وقيل: **المقامع** المطارق، وهي المرازب أيضا. وفي الحديث: «**بيد كل ملك من خزنة جهنم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوي بها سبعين ألفًا**»، وقيل: المقامع سياط من نار، وسميت بذلك؛ لأنها تقمع المضروب، أي: تذله.ا هـ

وقوله: (والأنكال) هي القيود.

قال القرطبي في "تفسيره" (١٩/ ٤٦): واحدها نكل، وهو ما منع الإنسان من الحركة. وقيل: سمي نكلا؛ لأنه ينكل به.

قال الشعبي: أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا؟ لا والله! ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفلت بهم. ا هـ

وجاء عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**القرآن شافع مشفع، وما حل صدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار** [(١)] ».

---

(١) رواه ابن حبان في "الموارد" برقم (١٧٩٣)، وسنده حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (٢٠١٩) والعلامة الوادعي في كتابه "الشفاعة" ص (٢٠١).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٥	وقَدْ أتَى النصُّ في الطُّولَيْنِ أنَّهما	ظِلٌّ لِتالِيهِما فِي مَوْقِفِ الغَمَمِ

الشرح

جاء هذا في صحيح مسلم (٨٠٤) عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: سمعتُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»، وجاء في "صحيح مسلم" برقم (٨٠٥) عن النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، يقول: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة، وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما».

وقوله: (الغمم) جمع غمة وهي الشدة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٦	وأنَّــه فِي غَــدٍ يَــأتِي لِصــاحِبِهِ	مُبَشِّــرًا وحَجِيجًــا عَنْــهُ إنْ يَقُــمِ

الشرح:

أي: إن قام بالقرآن الكريم علمًا وعملًا فإنه يأتي يوم القيامة يحاج عنه جاء في مسلم برقم (٨٠٤) عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٧	والْمُلْـكَ والْخُلْـدَ يُعْطِيـهِ ويُلْبِسُـهُ	تـاجَ الوَقـارِ الإِلـهُ الْحَـقُّ ذو الكَـرَمِ

الشرح

أي: يعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار[(١)] والتاج هو ما يصاغ للملوك من الذهب والجواهر كما في "النهاية" لابن الأثير: (١/ ٥٤٨)، كل هذا كرم من الله فما أعظمه من نعيم، نسأل الله من فضله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٨	يُقـالُ إِقْـرَأْ ورَتِّـلْ وارْقَ فِي غُـرَفِ الْـ	ـجَناتِ كـيْ تَنْتَهِـي لِلْمَنْـزِلِ الـنَّعِمِ

الشرح

ومن فضائل حامل القرآن ما جاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا[(٢)]».

وفي مسند أحمد برقم: (١٠٠٨٧)، عن أبي هريرة أو أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَهْ وَارْقَهْ، فَإِنَّ

---

(١) تنبيهٌ: الحديث الوارد في ذلك حديث حسن سيأتي ذكره تحت البيت برقم (١١٠).

(٢) رواه أبو داود برقم: (١٤٦٤) والترمذي برقم: (٢٩١٤)، وابن ماجه برقم: (١٤٦٤)، وسنده حسن وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم: (٨١٢٢) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٧٩٢).

مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا [١] **»**. وجاء عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«يقال لصاحب القرآن يوم القيامة إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه** [٢] **»**.

قلت: فلا يزال يقرأ حتى يصل إلى منزلته في جنات النعيم.

قال القرطبي في "المفهم" (١٢/ ٢٨): فهذا يدل على أن في الجنة درجات على عدد آي القرآن. ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا يحتمل شيئين أن تكون منزلته عند آخر حفظه وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظه والله أعلم. ا هـ (١/ ٦٧).

تنبيهٌ: جاء في مصنف ابن أبي شيبة برقم: (٢٩٩٥٢)، عن أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقلت: « ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن عدد درج الجنة على عدد آي القرآن [٣] **»**.

---

(١) وسنده صحيح، وله حكم الرفع فمثله لا يقال بالرأي.

(٢) أخرجه أحمد برقم: **(١١٣٦٠)**، وفيه عطية وهو العوفي ضعيف، ولكن الحديث حسن بشواهده التي تقدمت، وقد حسنه العلامة الألباني في "صحيح الجامع": **(٨١٢١)**.

(٣) وفيه محمد بن عبد الرحمن السدوسي ومفعس بن عمران، ذكرهما ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ولم يورد فيهما جرحٌ ولا تعديل، فجملة القول: إن إسناده ضعيف وقد ضعفه العلامة الألباني في "الصحيحة": **(٥/ ٢٨٣)** وضعيف الجامع برقم: **(١٨٨٠)**.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٠٩	وحُلَّتانِ مِن الفِرْدَوسِ قَدْ كُسِيَتْ	لِوالِدَيْهِ لَهَا الأكْوانُ لَمْ تَقُمِ
١١٠	قالَا: بِماذا كُسِيناهَا فقيلَ: بِما	أقْرَأْتُمَا ابْنَكُما فاشْكُرْ لِذِي النِّعَمِ

الشرح

ذكر الناظم في هاتين البيتين أجر الوالدين في حفظ ولدهما القرآن وأنهما يلبسان حلتان لا تقام لهما الدنيا فيسألان بم كسينا هذا أي: ما هو السبب فيقال: بأخذ ولدكما القرآن.

والناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشيرُ في هذه الأبيات الخمس التي تقدمت إلى ما جاء عن بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: كنت جالسا عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعته يقول: «تعلموا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»، قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «**تعلموا سورة البقرة، وآل عمران؛ فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا ؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان، أو ترتيلا**» [1].

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٢٩٥٠)، وفيه بشير بن المهاجر صدوق فيه لين كما في "التقريب"، فمثله حديثه حسن في المتابعات وأخرجه الطبراني في "الأوسط" برقم: (٥٧٦٤)، وفيه: شريك بن عبد الله القاضي ضعيف لسوء حفظه، وفيه: يحيى بن حميد الحماني ضعيف، ولكنه مقرون بيزيد بن هارون وهو ثقة فلا يضر، ولبعض فقرات الحديث شواهد من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحديث عبد الله بن عمرو

=

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١١	كَفَــى وحَسْــبُكَ بــالقُرْآنِ مُعْجِــزَةً	دامَــتْ لَــدَيْنَا دومًــا غــيْرَ مُنْصَــرِمِ

الشرح

قوله: (حسبك) أي: يكفيك من الحسب وهو الكفاية والمعنى يكفيك معجزة بالقرآن العظيم؛ لأنه كلام الله فهو أعظم معجزة.

وقوله: (غير منصرمٍ) أي: غير منقطع فهو معجزة خالدة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأعظمها معجزة كتاب باق غض طري لم يتغير ولم يتبدل منه شيء، بل كأنه منزل الآن، وهو القرآن العظيم، وما أخبر به يقع كل وقت على الوجه الذي أخبر به كأنه كان يشاهده عياناً [(١)] ؟. ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٢	لَمْ يَعْــتَرِهْ قــطُّ تَبْــدِيلٌ ولا غِــيَرٌ	وَجَــلَّ فِي كَثْــرَةِ الــتَّرْدادِ عــنْ سَــأَمِ

الشرح

أي: لم يحصل له تبديل ولا تغيير بل حفظه الله وهو الذي تكفل بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

= رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فالحديث حسن بشواهده، وقد حسنه ابن كثير في "تفسيره" (١/٦٣-٦٤)، وأقره العلامة الوادعي، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (٢٨٢٩).

(١) [إغاثة اللهفان (٢/٣٤٧)].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ٤٥٢): قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير [(١)] .ا هـ

وقوله: (وجل في كثرة الترداد عن سأم) أي: أن الذي يقرأ القرآن ويكثر من تلاوته لا يسأم ولا يمل؛ لأنه كلام الله ليس ككلام البشر يدخله السآمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٣	مُهَيْمِنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجِ	مُصَدِّقًا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ فِي القِدَمِ

الشرح

قوله: (مهيمنًا) أي: على الكتب السابقة كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٢١٥-٢١٦): فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمَها وأشملَها وأعظَمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن

---

(١) [التبيان، ص (٩٩)].

ما قبله، وزاده من الكمالات، ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].ا هـ

وقال القرطبي في "تفسيره" (٦/ ٢١٠): أي: عالياً عليها ومرتفعًا.ا هـ

وقوله: (عربياً) كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، فوصفه الله بالعربية في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:١١٣]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى:٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:١٢].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ٣١٣): وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣]؛ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.ا هـ

وقوله: (غير ذي عوج)، كما قال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٨].

قال ابن كثير في "تفسيره": (٧/ ٨٥): أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله

تعالى كذلك، وأنزله بذلك لعلهم يتقون أي يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد.ا هـ

وقوله: (مصدقاً جاء في التنزيل في القدم) أي: يصدق الكتب السماوية قبله وهي تصدقه، كما قال تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:٤١]، وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء:٤٧]، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر:٣١]، وقال: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠].

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" (٢/ ٣): أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنزال القرآن العظيم عليه.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١١٤	فيـهِ التفاصِـيلُ للأحْكـام مَـعْ نَبَـإٍ	عمَّا سَيأتِي وعنْ ماضٍ مِن الأمَمِ

الشرح

فيه التفاصيل للأحكام أي: في القرآن الكريم تفاصيل أحكام الشريعة الإسلامية من حلال وحرام وأمر ونهي، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

وقوله: (مع نبأ عما سيأتي وعن ماض من الأمم) أي: وفيه أخبار ما سيحصل في المستقبل وأخبار الأمم الماضية ففيه أخبار الأولين والآخرين.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٥	فـانْظُرْ قَـوارِعَ آيـاتِ الْمَعـادِ بِـهِ	وانْظُرْ لِما قَصَّ عَنْ عادٍ وعنْ إرَمِ

الشرح

أي: تفكر وتأمل في الآيات التي تتحدث عن آيات المعاد وعن تفاصيل يوم القيامة وما فيها من كُرَب وشدائد.

وقوله: (وانظر لما قص عن عادٍ وعن إرم) أي: وتفكر وتأمل لما ذكره الله عن قوم عاد وعن إرم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:٦-١٤].

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" (٨/ ٣٨٤): وهؤلاء عاد الأولى وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦-٨]، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٦	وانْظُرْ بِهِ شَرْحَ أحْكام الشَّريعَةِ هلْ	تَرى بِها مِن عَويصٍ غَيرِ مُنْفَصِمِ

الشرح

أي: وانظر في القرآن الكريم شرح أحكام الشريعة تجدها مبينة ومفصلة على أتم بيان وكمال.

وقوله: (**هل ترى بها من عويص**) العويص هو العسير ضد اليسير أي: هل تجد فيها أي: الأحكام من أمر صعب.

وقوله: (**غير منفصم**) الانفصام هو الانقطاع كما قال تعالى: ﴿لا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، أي: لانقطاع لها والمعنى: لا تجد شيئًا منقطعًا من أحكام الشريعة غير واضح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٧	أمْ مِـن صَـلاحٍ ولَمْ يَهْـدِ الأنـامَ لَـهُ	أمْ بـابُ هلْـكٍ ولَمْ يَزْجُـرْ ولَمْ يَلُـمِ

الشرح

(أَمْ) حرف عطف قوله: من صلاح معطوفة على **قوله**: من عويص.

وقوله: (**ولم يهدِ الأنام له**) **الأنام** هم: ما ظهر على الأرض من جميع الخلق كما في لسان العرب مادة (**أنم**)، وقال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، والمراد بهم هنا الجن والإنس؛ لأنهم هم المعنيون بالخطاب في القرآن الكريم.

وقوله: (**أم باب هلْك**)، قال في القاموس: هلك، كضرب ومنع وعلم، هلكا، بالضم، وهلاكا.ا هـ

والمعنى هل تجد شيئًا فيه مصلحة للعباد وسعادتهم وفلاحهم، ولم يهدِ القرآن الأنام لهذا الشيء؟ أو هل تجد شيئًا في القرآن فيه هلاك ومفسدة ومضرة ولم يزجر عنها ولم يحذر منها؟.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١١٨	أَمْ كَـانَ يُغْنِـي نَقِـيرًا عَـن هِدايَتِـهِ	جَميعُ ما عندَ أهلِ الأرضِ مِنْ نُظُمِ

الشرح

النقير: هو النكتة التي في ظهر النواة، والمعنى: هل يُغني عن هداية القرآن ولو بمقدار النقير، وهذا من باب التحقير، ولو كان شيئا يسيرًا جميعُ ما عند أهل الأرض كلهم من النظم التي يخترعونها؟

الجواب: لا لأن الشريعة الإسلامية شريعة شاملة كاملة جاءت بكل خير وفلاح .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به على من ظن ذلك وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما ما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وهو عهدنا

إليكم، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمنع من الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان [(١)] .ا هـ

وقال الشيخ فتح القدسي -حفظه الله-:

إن الشمول والكمال والبقاء ... مميزات ديننا دين البقاء.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١١٩	أخبـــارُهُ عِظَـــةٌ أمثالُـــهُ عِـــبَرٌ	وكُلُّـهُ عَجَـبٌ سُـحْقًا لِـذِي صَـمَمِ

الشرح

قوله: أخباره أي: أخبار القرآن فيها عظة للمتعظين، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقوله: (أمثاله عبر) للمعتبرين، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقوله: (وكله عَجَب)، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن:١].

---

(١) انظر "إعلام الموقعين" (٤/ ٢٨٥- ٢٨٦).

قال القرطبي في "تفسيره" (٢/ ٢٢): أي في فصاحة كلامه.

وقيل: عجبا في بلاغة مواعظه، **وقيل:** عجبا في عظم بركته،**وقيل:** قرآنا عزيزا لا يوجد مثله، **وقيل:** يعنون عظيما.ا هـ

قلت: ولا تعارض بين هذه الأقوال فهو يشمل جميع ذلك.

وقوله: (**سحقاً لذي صمم**) **أي:** بُعدا لمن صُمت أذنه عن سماع الحق والهدى والنور الذي جاء به القرآن العظيم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٠	لَمْ تَلْبَثِ الْجِنُّ إِذْ أَصْغَتْ لِتَسْمَعَهُ	إِنْ بَادَرُوا نُذُرًا مِنْهُم لِقَوْمِهِمِ

الشرح

ذكر في هذا البيت قصة النفر من الجن لما سمعوا القرآن من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما أصغت أي: مالت أصغى إلى الشيء، أي: مال إليه، فلما استمعوا إليه رجعوا على قومهم منذرين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وجاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما قرأ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث! فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا

نحو تهامة -وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر- فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد، فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن:١] (١) .

وفي البخاري برقم (٣٨٥٩) ومسلم برقم (٤٥٠) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله! فقدناك، فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد؟ فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٢١	اللهُ أكْبَرُ ما قدْ حازَ مِن عِبَرِ	ومِن بَيانٍ وإعْجازٍ ومِن حِكَمِ

الشرح

تكبير الناظم في هذا البيت والذي بعده، تعظيم للقرآن العظيم، فالتكبير يأتي للتعظيم والتعجب، ومن هذا الباب تكبير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد جاء عن

(١) [رواه البخاري برقم (٧٧٣) ومسلم برقم (٤٤٩)].

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت وأنا قائم: أطلقت نساءك؟ فقال: لا فقلت: الله أكبر». وحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الله أكبر أن النبي قال: الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧]، قالها ثلاث مرات [١] » .

وحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا [٢] ».

فكبر الناظم على ما قد حاز أي: جمع القرآن.

وقوله: (من عبر) أي: من عظات ومن بيان لكل شيء. وقوله: (وإعجاز) الإعجاز مأخوذ من العجز هو: القصور عن فعل الشيء، وضده القدرة. والمراد إثبات العجز للخلق فيما تحداهم به.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٢٢	واللهُ أكْـــبَرُ إذْ أعْيَـــتْ بلاغَتُـــهُ	وحُسْـنُ تَرْكِيبِـهِ للعُـرْبِ والعَجَـمِ

الشرح

قوله: (أعيت) أي: أعجزت.

---

(١) [رواه البخاري برقم (٣٧١) ومسلم برقم (١٣٦٥)].

(٢) [رواه البخاري برقم (٤٧٤١) ومسلم برقم: (٢٢٢) وهذا لفظ البخاري].

وقوله: (بلاغته) البلاغة هي: فصاحة الكلام مع مطابقته لمقتضى الحال.

والمعنى: أن فصاحة القرآن وحسن تركيبه أعجز العرب والعجم، من أن يؤتوا بمثله أو عشر سور من مثله أو بسورة أو آية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٣	كـمْ مُلْحِـدٍ رامَ أن يُبْـدِي مُعارَضَـةً	فعَـادَ بالـذُّلِّ والخُسْـرانِ والـرَّغَمِ

الشرح

(كم) للتكثير، (ملحد) من الإلحاد وهو الميل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

والملحد: هو الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه [(١)] . ا هـ

وقوله: (رام) أي: طلب (أن يبدي) أن يظهر (معارضة) تقول: عارضت فلانًا في السير، إذا سرت حياله، وعارضته مثل ما صنع، إذا أتيت إليه مثل ما أتى إليك، ومنه اشتقت المعارضة [(٢)] .

وقوله: (فَعَادَ) أي: فيعود بالذل والخسران والرغم هو الذل والصغار، يقال: رغم أنفه ألصق أنفه بالتراب ذلاً وعجزًا وصغارًا، فما من أحد يحاول أن يعارض القرآن إلا باء بالذل والخسران والفشل وعدم القدرة.

---

(١) [ذكره ابن القيم عن ابن السكيت في بدائع الفوائد (١/١٦٩)].

(٢) [راجع مقاييس اللغة (٤/٢٧٢)].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٨/ ٤٥٦): ذكروا أن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعد ما بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣]، ففكر مسيلمة هنيهة، ثم قال: وقد أنزل علي مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر وسترك حفر نقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٢٤	هيْهـاتَ بُعْـدًا لِـما رامُـوا ومـا قَصَـدُوا	ومـا تَمَنَّـوْا لَقَـدْ بَـاءُوا بِـذُلِّهِمِ

الشرح

قوله: (هيهات) هي: اسم فعل ماضي بمعنى بَعُد، والمعنى أي: بعدًا لهؤلاء الملاحدة الذين حاولوا واجتهدوا في أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو معارضته فقد باءوا بالفشل والخسران.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٢٥	خابَـتْ أمـانِيهِمْ شـاهَتْ وُجُـوهُهُمُ	زَاغَـتْ قُلـوبُهُمُ عـنْ هَدْيِـهِ القِـيَمِ

الشرح

وهذا دعاء من الناظم على الملاحدة بأن يخيب الله أمانيهم ويشوه وجوههم، وفي "صحيح مسلم" برقم: (١٧٧٧) عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: ثم

قبض، أي: رسول الله قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه».

وقوله: (زَاغَتْ) أي: قبُحت فقلوبهم زاغت، أي: مالت عن هديه القويم وصراطه المستقيم، وأما المؤمنون فإنهم يدعون الله كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

قال ابن كثير في تفسيره: (٢/ ١٠): أي: لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، (وهب لنا من لدنك) أي من عندك رحمة تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيمانا وإيقانا، إنك أنت الوهاب.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٦	كَمْ قَدْ تَحدَّى قريشًا في القديم وهُمْ	أهلُ البلاغةِ بينَ الخَلْقِ كُلِّهم

الشرح

كم تحدى الله قريشًا في الزمان القديم، وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان بين الخلق، وكانت نتيجة ذلك العجز والخيبة.

قال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٣٧): وكذلك محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٧	بِمِثْلِـــهِ وبِعَشْـــرِ ثُـــمَّ واحـــدةٍ	فلَـمْ يَرُومُـوهُ إذْ ذا الأمـرُ لَمْ يُـرَمِ

الشرح

تحداهم أن يأتوا بمثله كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

وقوله: (وبعشر) وتحداهم بعشر سور كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:١٣].

وقوله: (ثم واحدة)، ثم تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٣٨].

قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" (٤/ ٢٦٩): ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه.ا هـ

وقوله: (فلم يروموه إذ ذا الأمر لم يرم) أي: فلم يقصدوا مثل هذا الأمر لأنهم عجزوا عن ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٨	الجنُّ والإنسُ لم يأتوا لَوِ اجْتمعوا	بِمِثْلِهِ ولَوِ انْضَمُّوا لِمِثْلِهِم

الشرح

هذا البيت فيه إشارة إلى الآية المتقدمة ذكرها: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، فلو اجتمع الجن والإنس جميعُهم من أولهم إلى آخرهم وكان معهم مثلُهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، قال ابن كثير في "تفسيره" عند هذه الآية: ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٢٩	أَنَّى وكيْفَ وربُّ العَرْشِ قائِلُهُ	سبْحانَهُ جلَّ عنْ شِبْهٍ لهُ وسَمِي

الشرح

قوله: (أَنَّى) قال القرطبي في "تفسيره" (٣/ ٩٣): أنى تجيء سؤالاً وإخباراً عن أمر له جهات، فهو أعم في اللغة من كيف، ومن أين، ومن متى، هذا هو الاستعمال العربي في أنى.ا هـ

والمعنى: كيف يؤتى بمثل القرآن، وهو كلام الله لا يشبهه كلامٌ.

قال ابن كثير في "تفسيره": (٢/ ٣٧): وما ذاك إلا؛ لأن كلام الرب لا يُشبهه كلام الخلق أبداً. ا هـ

وقوله: (سبحانه جلَّ) أي: تنزه الرب جل وعلا ومعنى جلَّ عظُم.

وقوله: (عن شبه له) فهو تنزه عن الشبيه كما قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٧/ ١٧٨): أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له وهو السميع البصير. ا هـ

وقوله: (سمي) أي: وتنزه عن السمي كما قال تعالى: هل تعلم له سميا، أي: شبيهاً ونظيراً ومماثلاً.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٣٠	مَـا كـان خَلْقًـا ولا فَيْضًـا تَصَـوَّرَهُ	نَبِيُّنَـا لا ولا تَعبِـيرَ ذِي نَسَـم

الشرح:

أي: ليس القرآن بمخلوق بل هو كلام الله تعالى، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]، ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال إسحاق الحنظلي: ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وكيف يكون شيء خرج من الرب -عز وجل- مخلوقا [(١)] ؟!.ا هـ

قوله: (**ولا فيضاً تصوره نبيناً**) وأي: ليس القرآن فيضاً فاض على رسول الله ﷺ فتصوره بل هو وحي من الله أنزل عليه.

وقوله: (**لا ولا تعبير ذي نسم**) أي: وليس تعبيرًا عن ذي نسم جمع نَسَمَة، وهي: النفس أو الروح، وفي حديث الإسراء وهو حديث أنس رضي الله عنه : «**وعن يمينه وشماله نسم بنيه** [(٢)] ».

وقال علي رضي الله عنه : « **والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ....** [(٣)] الحديث ».

وحديث كعب بن مالك رضي الله عنه **أن النبي** ﷺ ، **قال:** «**نسمة المؤمن طائر في شجر الجنة حتى يبعثه الله عز وجل إلى جسده يوم القيامة** [(٤)] ».

فرد الناظم رحمه الله في البيت على بعض الطوائف المبتدعة.

فقوله: (**ما كان خلقًا**) ردٌ على الجهمية.

وقوله: (**ولا فيضاً تصوره نبينا**) ردٌ على الفلاسفة.

وقوله: (**ولا تعبير ذي نسم**) ردٌ على الأشاعرة الذين يقولون: إنه عبارة عن كلام الله وكذلك ردٌ على الكلابية الذين يقولون: إنه حكاية عن الله قال شيخ

---

(١) [السير (٣٦٧/١١)].

(٢) [رواه البخاري برقم (٣٤٩) ومسلم برقم (١٦٣)].

(٣) رواه مسلم برقم (٧٨).

(٤) رواه النسائي برقم: (٢٠٧٣) وابن ماجه برقم: (٤٢٧١) وهو حديث صحيح وأحاديث كثيرة.

الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن الإيمان بالله: وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله، أو عبارة؛ بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف؛ لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغا مؤديا. وهو كلام الله؛ حروفه، ومعانيه؛ ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف .ا هـ [1]

ثم لما كانت أقوالُهم باطلةً ذكر القولَ الصحيح، وهو قولُ أهلِ السنة والجماعة، فقال:

١٣١	بـــلْ قالَـــهُ ربُّنـــا قـــوْلا وأنْزَلَـــهُ	وَحْيًـا عَـلى قلْبِـهِ المُسْـتَيْقِظِ الفَهِـمِ

الشرح

وهذا هو القول الصحيح الذي عليه سلف الأمة أنه كلام الله منه بدأ وإليه يعود، تكلم به بحرف وصوت.

وقوله: (وأنزله) كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ [الحج:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩]، وآيات كثيرة في هذا الباب.

---

(١) [العقيدة الواسطية: (١٩٧-١٩٨)].

وقوله: (وحيًا) كما قال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف:٢٧].

وقوله: (على قلبه) أي: على قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

وقوله: (المستيقظ)، وهذا وصف لقلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه مستيقظ لا ينام جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي [١]»، وفي "مسند أحمد" برقم: (٧٤١٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تنام عيني ولا ينام قلبي [٢]».

وقوله: (الفهم) وهذا وصف ثانٍ لقلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي: الذي منَّ الله عليه بالفهم التام.

---

(١) [رواه البخاري برقم: (٣٥٦٩)، ومسلم برقم: (٧٣٨)].

(٢) وسنده حسن، وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٦٩٦)، وحسنه العلامة الوادعي في "الصحيح المسند" برقم (١٣٣٥).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٧	واللهُ يَشْـــهَدُ والأمـــلاكُ شـــاهِدَةٌ	والرُّسْلُ معْ مُؤْمِنِي العُرْبَانِ والعَجَمِ

الشرح

كل هؤلاء الذين ذكرهم في هذا البيت يشهدون أن القرآن كلام الله أنزل على قلب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يجحد ذلك إلا ضلالٌ عن الصراط المستقيم.

والسنة لغة: الطريقة ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران:١٣٧]، أي: طرق.

وشرعا: هو ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٤٧	ارْوِ الْحَــدِيثَ ولازِم أَهْلَــهُ فهُــمُ الْ	ناجُونَ نَصًّا صريحًا للرّسولِ نُمِي

قوله: (**ارو الحديث**) أي: اعتن برواية الحديث وحفظه وإتقانه والاستدلال به.

وقوله: (**ولازم أهله**) أي: المعتنيين به الحرصين عليه العاملين به.

قوله: (**فهم الناجون**) أي: من سخط الله وغضبه فهم الذين تحققت نجاتهم.

وقوله: (**نصًا صريحًا**) أي: جاء ما يدل على نجاتهم في النص الصريح.

وقوله: (**للرسول نمي**) أي: رفع إلى النبي ﷺ، يشير إلى ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**». وأخرجه ابن ماجه برقم: (٣٩٩٣) بلفظ: «**كلها في النار، إلا واحدة وهي: الجماعة**». وعند ابن ماجه برقم: (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسنده حسن وعن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند الطبراني في الكبير برقم:

(٨٠٥٤) بلفظ: «**إلا السواد الأعظم**». وفي سنن الترمذي برقم: (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أنا عليه وأصحابي**[(١)]».

وقال الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم[(٢)]. اهـ

وقال ابن المبارك: هم عندي أصحاب الحديث[(٣)]. اهـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٣٤	سَامِتْ مَنَابِرَهُمْ واحْمِلْ محَابِرَهُمْ	والْزَمْ أكَابِرَهُم في كُلِّ مُزْدَحَمِ

الشرح

قوله: (**سامت**) أي: اقصد (**منابرهم**) جمع مِنبر وهو المكان الذي يرتقيه الخطيب، سُمي منبرًا لارتفاعه وعلوه.

والمعنى: اقصد مجالس أهل العلم وهي مجالس الحديث والفقه في الدين للاستفادة منهم.

وقوله: (**واحمل محابرهم**) جمع محبرة[(١)]. والمعنى: أن يأخذ طلابُ العلم كتب شيخه وأن يتواضع لمعلمه وأن يأخذ له محبرة مثلهم لتقييد العلم، والفوائد والنصائح وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قيدوا العلم بالكتابة**»[(٢)]

---

(١) وله شاهد من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود برقم: (٤٥٩٧)، وسنده حسن، فالحديث صحيح بمجموع طرقه، وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم: (٢٠٤).

(٢) ["شرف أصحاب الحديث" ص (٢٤)].

(٣) ["شرف أصحاب الحديث" ص (٢٦)].

وقال الشاعر:

العلــمُ صــيدٌ والكتابــةُ قيــدُهُ قَيِّــدْ صــيودَكَ بالحبــالِ الواثقــة

فمــن الحماقــةِ أَنْ تصــيدَ غزالــةً وتتركُهــا بــين الخلائــقِ طالقــة

وقوله: (**والزم أكابرهم**) أي: أكابرهم في العلم وليس في السنِّ، وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع مشيخة قريش وهو صغير كما في البخاري برقم: (٤٢٩٤)، **وقال ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « **لا يزال الناس صالحين** متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومن أكابرهم، فإذا أتاهم عن أصاغرهم هلكوا [٣]» .

فإن البركة بوجودهم، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**البركة مع أكابركم**)[٤]، **قال المناوي:** البركة مع أكابركم المجربين للأمور المحافظين على تكثير الأجور،

=(١) بفتح الميم وكسرها كما في المعاجم، فممن ضبطها بالكسر الجوهري وممن ضبطها بالفتح ابن منظور والفيروزآبادي، وممن ضبطها بالوجهين الفيومي، فالفتح على أنها اسم مكان، والكسر على أنها اسم آلة. والله أعلم.

(٢) **حسن بشواهده.** أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله برقم (٣٩٥) عن أنس بن مالك وفيه عبد الحميد بن سليمان ضعيف كما في التقريب وجاء عن عبد الله بن عمرو أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله برقم (٤١٢) والحاكم أيضاً برقم (٣٦٢) وفيه عبد الله بن مؤمل وجاء عن ابن عباس أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٧٧) وقال: وفيه حفص بن عمر العطاف ضعيف. فالحديث حسن بمجوع طرقه وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (٢٠٢٦).

(٣) [أخرجه الطبراني في "الكبير" برقم (٨٥٩٠)].

(٤) (**حديث حسن**)، أخرجه ابن حبان برقم: (٥٥٩)، والبيهقي في "الشعب" برقم: (١٠٤٩٣) عن ابن عباس مرفوعاً به. وسنده حسن، وله شواهد يصح بها وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم

=

فجالسوهم لتقتدوا برأيهم، وتهتدوا بهديهم، أو المراد: من له منصب العلم وإن صغر سنه، فيجب إجلالهم حفظًا لحرمة ما منحهم الحق سبحانه وتعالى [١] .ا هـ

وقوله: (في كل مزدحم)، والمعنى: ولو كان عند أكابر العلماء والراسخين في العلم زحامٌ، فالزم مجالسهم، واستفد من علمهم، وليس المقصود في كل زحام، وإن كان على باطل، فإنه قد يكون هناك زحامٌ على رجل وهو مبتدع أو على ضلال، فالعبرة ليست بالكثرة، العبرة بالثبات على السنة والعمل بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٣٥	اسْلُكْ مَنَارَهُمُ والْزَمْ شِعارَهُمُ	واحْطُطْ رَحْلَكَ إنْ تَنْزِلْ بِسُوحِهِمِ

الشرح

المنار: جمع منارة، وهي العلامة تجعل بين الحدين [٢] .ا هـ

قلت: ومنه حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لعن الله من غير منار الأرض [٣] »،

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمراد بمنارة الأرض بفتح الميم علامات حدودها [١] . اهـ

= (١٧٧٨). *تنبيهٌ: الحديث جاء بلفظ: الخير مع أكابركم أخرجه البزار كما في كشف الأستار برقم (١٩٥٧) عن ابن عباس وفيه نعيم بن حماد فيه ضعف والوليد بن مسلم مدلس تدليس التسوية. وقد ضعف الحديث العلامة الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٩٥٥).

(١) فيض القدير (٣/ ٢٢٠).

(٢) [النهاية (٥/ ١٢٧)].

(٣) [رواه مسلم برقم: (١٩٧٨)].

وقوله: (**والزم شعارهم**) أي: طريقتهم وعلامتهم في العلم والتعليم والعمل به فأولاً يتعلم الإنسان ثم يُعلم كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:١٩]، **وقد بوب الإمام البخاري في** "صحيحه": باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾، فبدأ بالعلم. اهـ

وقوله: (**واحطط**) الحط بمعنى: الوضع، أي: ضع **رحالك**، جمع رحل وهو المركب للبعير ويطلق على الدور والمنازل والمساكن رحالٌ كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يأمر مؤذناً يؤذن، ثم يقول: «ألا صلوا في الرحال** [٢] **»**.

وقوله: (**إن تنزل بسُوحِهم**) سُوح جمع ساحة وهي: الناحية، والفضاء الذي بين البيوت، وتجمع على ساحات أيضًا، فإذا نزلت عند العلماء فضع رحالك واطلب العلم، ولا تكن مستعجلاً في الذهاب من عندهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٣٦	هـمُ العُدولُ لِحَمْـلِ العِلـمِ كَيْفَ وَهُـمْ	أُولُـو المكـارِمِ والأخْـلاقِ والشِّـيَمِ

الشرح

يشير إلى حديث: «**يرثُ هذا العلم من كلِّ خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»[٣].

=(١) [شرح مسلم (١٣/١٤١)].

(٢) [رواه البخاري برقم: (٦٣٢)، ومسلم برقم: (٦٩٧)].

(٣) ضعيف. أخرجه البيهقي في الكبرى برقم (٢٠٩١١) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلاً وقال الحافظ العراقي: وهذا إما مرسل أو معضل وإبراهيم هذا الذي أرسله لا يعرف شيء من العلم غير هذا قاله أبو الحسن في ابن القطان في بيان الوهم والإيهام. اهـ التقييد والإيضاح (١٣٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التوكل المذكور في الآية، فأخبر أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب، وهذا يتضمن تعديله لحمله العلم الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله: هذا العلم، فكل من حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلاً، ولهذا اشتهر عند الأمة: عدالة نقلته وحملته اشتهارًا لا يقبل شكًا ولا امتراء، ولا ريب أن من عدله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يسمع فيه جرح، فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي، وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض [(١)] . اهـ

وقوله: (كيف وهم أولو المكارم والأخلاق والشيم) أي: كيف لا يكونون ذلك عدولاً وحملةً للعلم، وهم قد اتصفوا بمكارم الأخلاق والصفات الحميدة والشيم النبيلة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٣٧	هُمُ الأفاضِلُ حازُوا خَيْرَ مَنْقَبَةٍ	هُمُ الأُولَى بِهِمُ الدِّينُ الحَنِيفُ حُمِي

الشرح

(الأفاضل) جمع فاضل من فضُل يفضُل فهو فاضل أي: كثير الفضل والفضيلة: الدرجة الرفيعة في الفضل [(٢)] .ا هـ

---

(١) [مفتاح دار السعادة، ص **(١٦٣)**].

(٢) [بتصرف من "لسان العرب" **(١١/ ٥٢٤)**].

وقوله:(حازوا) أي: جمعوا. (خَيْرَ مَنْقَبَةٍ)، **والمنقبة** بفتح الميم الفعل الكريم، كما في ["المصباح المنير" (٢/ ٦٢٠)]، فصاروا أفضل من غيرهم بماذا؟ في كونهم اتصفوا بخير منقبة وهي حملُهم لهذا الدين.

وقوله: (هُمُ **الأُولى**) الأُولى: اسم موصول بمعنى الذين، (بِهِمُ الدِّينُ) الدّين لغةً: هو ما يدان به وينقاد إليه.

وشرعًا: هو ما شرعه الله من الأحكام.

وقوله: (الحُنيفُ) أي: القويم به المائل عن كل دين باطل.

وقوله: (حُمِي) أي: حمى الله هذا الدين بالعلماء الراسخين الذين حمَلوه إلى هذه الأمة، وعلى رأسهم أصحاب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إغاثة اللهفان (١/ ١٥٩): فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفى عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٣٨	هُمُ الْجَهابِذَةُ الأَعْلامُ تعرِفُهُمْ	بَينَ الأنامِ بِسيَاهُمْ وَوَسْمِهِم

الشرح

قوله: (**هم الجهابذة**) **جمع جِهبذ** وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور، البارع العارف بطرق النقد، وهو معرب [(١)] .ا هـ

---

(١) [انظر تاج العروس مادة جهبذ].

وقوله: (الأعلام) جمع علم وهو الجبل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن:٢٤].

وقوله: (الأنام): ما ظهر على الأرض من جميع الخلق، والمراد بهم هنا الجن والإنس؛ لأنهم هم المعنيون بالخطاب في القرآن الكريم.

وقوله: (بِسِيمَاهُمْ) بعلامتهم، ومنه قوله تعالى في أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: (وَوَسْمِهِمِ) الوسْم أثر الكي، والمعنى: أن هؤلاء العلماء النقاد معروفون بعلامات وصفات عن غيرهم، وهذه العلامات هي تمسكهم بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة واتصافهم بالأخلاق الحميدة والصفات النبيلة، وبعدهم عن الأخلاق الرذيلة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٣٩	هـمْ نـاصِرُو الـدِّينِ والْحـامُونَ حَوْزَتَـهُ	مِـنَ العَـدُوِّ بِجـيشٍ غـيرِ مُنْهَـزِم

الشرح

فالعلماء هم الذين قيضهم الله لنصرة دينه والدفاع عن سنة نبيه وبيان حال أعداء الله ورسوله الذين صدوا عن هذا الدين ونشروا بدعهم وضلالتهم، فنصر الله العلماء بجيش غير منهزم؛ لأن الله تكفل بنصرة دينه وأوليائه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾

[الصافات:١٧١-١٧٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، وقال: ﴿جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص:١١]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٠	هـمُ البُـدورُ ولكـنْ لا أُقُـولَ لَهُـمْ	بـل الشُّـموسُ وقـد فـاقُوا بِنُـورِهِم

الشرح

(البدور) جمع بدر وسمي (البدر) بدرا لمبادرته الشمس بالطلوع في ليلته كأنه يُعجلها المغيب، وقيل سمي به لتمامه. وقوله: **(لا أُقُولَ لَهُمْ)** أي: لا غياب لهم.

والمعنى: أن البدر إذا أفل وغاب، فإن العلماء لا أفول لهم؛ لأن علمهم لا يزال موجودًا منشرًا في أوساط الناس، فنور القرآن والسنة لا يزال موجوداً.

وقوله: **(بلِ الشُّموسُ وقد فاقُوا بِنُورِهِم)** مثَّل نورَ العلماء بضوء الشمس، بل قد فاق نورهم نور الشمس لماذا؟ لأن نور الشمس يغيب، ففي الليل لا تجد الشمس وفي النهار لا تجد القمر والعالم تجده في الليل والنهار.

ولذا قال رحمه الله:

١٤١	لَمْ يَبْـقَ لِلشَّـمْسِ مِـنْ نُـورٍ إِذَا أَفَلَـتْ	وَنُورُهُم مُشْرِقٌ مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِم

الشرح

قوله: (مِنْ بَعْدِ رَمْسِهِم) وأصل الرمس: الستر والتغطية، **والمعنى**: أن العالم إذا مات ودفن في قبره، فإن نوره باقٍ؛ لأن العلم الذي كان معه لا يموت بموته، بل

لا يزال يستفاد منه حتى بعد موته، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له** [(١)] »،

فهذا الإمام البخاري، والإمام مسلم، وشيخ الإسلام، وابن رجب وابن القيم، وابن كثير، وصاحب هذه المنظومة: حافظ حكمي وغيرهم، من أهل العلم ماتوا وما مات علمهم بل لا يزال موجودًا، وكأنهم أحياء بين أظهرنا، فلا إله إلا الله ما أعظمها من نعمة كم من أناس ماتوا، ومات ذكرهم والعالم لا يزال يُذكر ويترحم عليه قال الشاعر:

يموت قوم فيحيي العلم ذكرهم ... والجهل يُلحق أحياء بأموات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٤٢	لَهُمْ مَقَامٌ رَفِيعٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ	مِنَ العِبادِ سِوَى السَّاعِي كَسَعْيِهِمِ

الشرح

أي: أهل العلم مقامهم رفيع بسبب حرصهم واجتهادهم في العلم، وتعليمه للناس، فلا ينال هذا المقام الرفيع كل واحد بل لا يناله إلا من سعى في طلب العلم والصبر عليه كسعي العلماء، فهذا العلم عزيز إن تُعطه كُلَّك يُعطِكَ بعضَه، فلا ينال العلم بالأماني، فلا بد من الجد والاجتهاد والصبر على ذلك، قال النبي

---

(١) [رواه مسلم برقم (١٦٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنما العلم بالتعلم»[(١)]، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إن الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم)[(٢)].

وقال يحيى بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يستطاع العلم براحة الجسم[(٣)].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٤٣	أَبْلِغْ بِحُجَّتِهِمْ أَرْجِحْ بِكِفَّتِهِمْ	فِي الفَضْلِ إِنْ قِسْتَهُمْ وَزْنًا بِغَيْرِهِمِ

الشرح

قوله: (أَبْلِغْ بِحُجَّتِهِمْ) هذا أسلوب تعجب أي: ما أبلغ حجتهم؛ لأنها مستقاةٌ من القرآن والسنة على فهم سلف الأمة.

وقوله: (أَرْجِحْ بِكِفَّتِهِمْ) أي: إذا وزنتهم بغيرهم رجحوا عليهم؛ لأنهم اعتنوا بكتاب وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (فِي الفَضْلِ إِنْ قِسْتَهُمْ وَزْنًا بِغَيْرِهِمِ) أي: إن قست بينهم وبين غيرهم من جهة الفضل فترجح كفتهم فهي الكفة الراجحة؛ لأنهم أهل الحجة الدامغة.

---

(١) حسن بشواهده. أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً تحت باب العلم قبل القول والعمل وقد وصله الخطيب في تاريخه (١٠/ ١٨٤) عن أبي هريرة وسنده حسن في الشواهد وله شواهد يُحسن بها فالحديث حسن بشواهده وقد حسنه الحافظ في الفتح (١/ ١٦١) والعلامة الألباني في الصحيحة برقم (٣٤٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم: (٢٦١٢٣)، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم برقم: (٦١٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٤	كفاهُمُو شَرَفًا أنْ أصبحُوا خَلَفًا	لسَيِّدِ الحُنَفَا في دينِهِ القِيَمِ

الشرح

قوله: (كفاهُمُو شَرَفًا) أي: يكفي العلماء شرفاً وفضلاً ومنزلةً أن أصحبوا أتباعًا في دينه القويم؛ لأنهم وَرِثُوا العلم الذي هو ميراث الأنبياء.

وقوله: (لسَيِّدِ الحُنَفَا)، وهو نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو سيد ولد آدم وسيد الحنفاء جمع حنيف، وهو المقبل على الله المعرض عما سواه [1].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٥	يُحْيُونَ سُنَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَلَهُمْ	أَوْلَى بِهِ مِنْ جَمِيعِ الخَلْقِ كُلِّهِمِ

الشرح

هناك سنن مهجورة تركت وهجرت في أوساط الناس، فقيض الله العلماء يحيونها فعملوا الناس بها ونشروها بين الناس وحثوا على متابعتها وحذروا من مخالفتها.

قال السندي رحمه الله في حاشيته على سنن ابن ماجه: (١/ ٩١): وإحياؤها أن يعمل بها ويحرض الناس ويحثهم على إقامتها.ا هـ

---

(١) [انظر جلاء الأفهام ص (٢٦٩)].

فمن حث الناس على سنة مهجورة وعمل بها، فإنه يكون قد أحياها، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**اللَّهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**» [(١)].

وقال العلامة العباد في شرح "سنن أبي داود": وليس كل من أحيا سنة من السنن قد اندثرت، ونسيت يعد مجددًا؛ لأنه قد يوجد في بلد من البلدان سنن اندثرت فيحييها علم، **ولا يقال**: إنه هو المجدد الذي ينطبق عليه الحديث؛ لأن المجدد لا يكون مجددًا لمسألة واحدة أو لقضية، واحدة اندثرت، وإنما المقصود أن يتميز بكثرة النفع وكثرة الخير والتبصير بالحق والهدى والتحذير من طرق ومسالك الردى.ا هـ

وقوله: (**من جميع الخلق كلهم**) أي: هم أولى الناس بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لأنهم قاموا مقامه في حمل الدين وبثه للناس.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٤٦	يَــرْوُونَ عنــهُ أحادِيــثَ الشــريعةِ لا	يَأْلُونَ حِفْظًا لَهَا بالصَّدْرِ والقَلَمِ

الشرح

هذا هو دأب أهل الحديث رواية أحاديث الشريعة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حفظاً وتدوينًا وعناية وفهمًا صحيحًا**، ولا يقصرون في بذل الوسع والجهد في حفظ الحديث إما بالصدر، أي: بضبطه وحفظه في الصدر وإما بالقلم أي: في كتابته.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٧٠٠) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٧	يَنْفُونَ عنها انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وتَحْـ	ـريفَ الغُلاةِ وتَأْويلَ الغَوِيْ اللَّئِمِ

الشرح

قوله: (يَنْفُونَ عنها) أي: عن السنة.

وقوله: (انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الغُلاةِ وتأويلَ الغويْ اللَّئِمِ)، يشير إلى حديث «**يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "إغاثة اللهفان" (١/ ١٥٩): فأخبر أن الغاليين يحرفون ما جاء به والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه. والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة، فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفى عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الأنبياء قبله من هؤلاء. ا هـ

---

(١) ضعيف. أخرجه البيهقي في الكبرى برقم (٢٠٩١١) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلاً وقال الحافظ العراقي: وهذا إما مرسل أو معضل وإبراهيم هذا الذي أرسله لا يعرف شيء من العلم غير هذا قاله أبو الحسن في ابن القطان في بيان الوهم والإيهام.ا هـ التقييد والإيضاح (١٣٩).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٨	أدَّوا مَقالَتَـــهُ نُصْـــحًا لأمَّتِـــهِ	صـانَوْا رِوايَتَهـا عـنْ كُـلِّ مُـتَّهَم

الشرح

قوله: (أدَّوا مَقالَتَهُ) أي: بلغوا ما قاله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمة، فالصحابة بلغوا للتابعين، والتابعون بلغوا لأتباع التابعين، وهكذا كل جيل يبلغ من بعده كل هذا التبليغ نصحًا لأمته، فالنصيحة مطلوبة لدين الله، ولسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** [(١)] ».

وقوله: (صانَوْا رِوايَتَها) أي: السنة (عنْ كُلِّ مُتَّهَمِ) أي: من أُتهم في روايته لا يقلبون منه ولهذا أُلفت كتب الرجال وكتب الجرح والتعديل حافظًا على السنة من الرواة المتهمين بعدم العدالة.

قال محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا العلمَ دينٌ فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يكونوا سيألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.

وقال ابن المبارك: الإسناد من الدِّين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وكل هذه الآثار في "مقدمة صحيح مسلم".

---

(١) [رواه مسلم برقم (٥٥) عن تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٤٩	لَمْ يُلْهِهِمْ قَطُّ مِن مالٍ ولا خَوَلٍ	ولا ابْتِياعٍ ولا حَرْثٍ ولا نَعَم

الشرح

أي: لم يشغل هؤلاء العلماء حملة السنة مالٌ ولا خَوَلٌ، **والخَوَل**: حشم الرجل وأتباعه، وأحدهم خائل، ومنه حديث: «**إخوانكم خولكم..**» [(١)]، فالتخويل بمعنى الإعطاء والتمليك، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

قال القرطبي في "تفسيره" (٧/ ٤٣): أي: أعطيناكم وملكناكم والخول: ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم.ا هـ

وقوله: (ولا ابْتِياعٍ ولا حَرْثٍ ولا نَعَمٍ) فما شغلهم المال والخول والبيع والشراء والحرث والنعم عن العلم وتحصيله، قال حفص بن غياث، قيل له: ألا تنظر إلى أصحاب الحديث وما هم فيه، قال: «**هم خير أهل الدنيا**» [(٢)] .ا هـ

وقال أبو عبد الله الحاكم: ولقد صدقا جميعا أن أصحاب الحديث خير الناس، وكيف لا يكونون كذلك، وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة وسمرهم المعارضة واستراحهم المذاكرة، وخلوقهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاءهم الضياء، وتوسدهم الحصى فالشدائد مع وجود الأسانيد

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٣٠) ومسلم برقم (١٦٦١).

(٢) [معرفة علوم الحديث ص (٣)].

العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، قلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم [١] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٥٠	هَـذا هُـو الْمَجـدُ لا مُلْـكٌ ولا نَسَـبٌ	كَلاَّ ولا الْجمعُ لِلأموالِ والْخَدَمِ

الشرح

المجد: هو الشرف الواسع، فالمجد الذي تحصلوا عليه هو بالعناية بالعلم وبدين الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس المجد بالملك والنسب، ولا بجمع الأموال والخدم والحشم؛ لأن كل هذه تنتهي، أما العلم، فإن نفعه دائم باقٍ لصاحبه، قال أشعث بن شعبة المصيصي: قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرقت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له: عبدالله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان [٢] . ا هـ

---

(١) [معرفة علوم الحديث ص (٣)].

(٢) [انظر تاريخ بغداد: (٣٨٨/١١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٥١	فكُـلُّ مَجْـدٍ وَضِـيع عِنـد مَجْـدِهِمُو	وكـلُّ مُلْـكٍ فَخُـدَّامٌ لِمُلْكِهِـم

الشرح

(فكُلُّ مَجْدٍ) بالنسبة لمجد العلماء وضيع وهيِّن إذا قرن بمجد العلماء.

وقوله: (وكلُّ مُلْكٍ فَخُدَّامٌ لِمُلْكِهِمِ)، وهذا فيه أن الملك الحقيقي والسيادة والرفعة لهي بالعلم وفي "صحيح مسلم" برقم (٨١٧): أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعسفان، وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : أما إن نبيكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين**».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٥٢	والأمْـنُ والنُّـورُ والفَـوْزُ العظـيمُ لَهُـمْ	يَـوْمَ القِيامَـةِ والبُشْـرَى لِحِـزْبِهِم

الشرح

ذكر في هذا البيت أربع ثمرات لأهل الحديث:

الأولى: قوله: (والأمْنُ) أي: في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]،

الثانية: (والنُّورُ) أي: نور من آثار العلم لصاحبه قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ

لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر:٢٢].

الثالثة: (والفَوْزُ العظيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ) كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [النساء:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

الرابعة: (والبُشْرَى لِحِزْبِهِمِ)، فالبشارة لهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، وهذا تحفيزٌ وتشويقٌ للقلوب، لمن أراد أن يبلغ مبلغهم.

ولهذا قال بعد ذلك:

١٥٣	فـــإنْ أرَدْتَ رُقِيًّـــا نَحـــوَ رُتْبَـــتِهِم	ورُمْـتَ مَجْـدًا رفِيعًـا مِثْـلَ مَجْـدِهِم

الشرح

أي: إن أحببت رقيا والرقي بمعنى الصعود، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء:٩٣] أي: فإن أردت أن تصعد وتسلك مسلكهم وتكون مثلهم.

وقوله: (ورُمْتَ مَجْدًا رفِيعًا مِثْلَ مَجْدِهِمِ) أي: وطلبت مجداً عالياً رفيعاً، مثل مجد وشرف أهل الحديث، فعليك بلزوم الوصايا الآتية بعدُ.

ولذا قال:

١٥٤	فاعْمَدْ إلَى سُلَّم التقوَى الذِي نَصَبُوا	واصْعَدْ بِعَزْم وَجُدَّ مِثْلَ جِدِّهِم

الشرح

قوله: (فاعْمَدْ) أي: اقْصِد (إلَى سُلَّمِ التقوَى)، هذا فيه إشارة إلى أن أهل التقوى يتفاوتون في درجاتهم وأنهم ليسوا في درجة واحد.

وقوله: (واصْعَدْ بِعَزْمٍ).

قال القرطبي في "تفسيره": (٣/ ١١٠): العزيمة: تتميم العقد على الشيء.ا هـ

وقوله: (وَجُدَّ مِثْلَ جِدِّهِمِ) أي: واجتهادا مثل اجتهادهم فعلى طالب العلم أن يقرأ في كتب تراجم السلف حتى يكون مثلهم.

١٥٥	واعْكُفْ عَلى السُّنَّةِ المُثْلى كَما عَكَفُوا	حِفْظًا معَ الكَشْفِ عن تَفْسِيرِها وَدُمِ

الشرح

الاعتكاف في اللغة: الملازمة، يقال: عكف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه.

والمعنى: لازم المطالعة في سنة رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظاً وفهماً وعملاً كما لازم أهل الحديث العناية بالسنة حفظاً وفهماً وعملاً.

وقوله: (حِفْظًا معَ الكَشْفِ عن تَفْسِيرِها) أي: لا تكن عنايتك بالسنة مجرد حفظ فقط بل لابد من العناية بفهم الأحاديث وفقهها.

وقوله: (وَدُمِ) أي: داوم على الحفظ والفهم والعمل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٥٦	واقْــرَأْ كِتابًــا يُفِيــدُ الاصْــطِلاحُ بِــهِ	تَدْرِي الصَّحيحَ مِن الموْصوفِ بالسَّقَمِ

الشرح

هذا أمر لطالب العلم بالقراءة في كتب مصطلح الحديث وتعلمها على يد معلمين حذاق، وليس المعنى أن يقرأ كتاباً واحداً بنفسه دون أن يتعلم على يد شيخ، فإنه لابد أن يدرس كتبًا ويتدرج في هذا الباب، فإذا تعلم علم المصطلح وطالع في كتب هذا الفن عرف الحديث الصحيح من الضعيف.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٥٧	فهْـيَ الْمَحَجَّـةُ فاسْـلُكْ غـيرَ مُنْحَـرِفِ	وهيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحاءُ فاعْتَصِمِ

الشرح

(فهْيَ) أي: السنة (الْمَحَجَّةُ) أي: الحجة الواضحة البينة. (فاسْلُكْ غيرَ مُنْحَرِفٍ) أي: الزم كتاب الله وسنة رسوله ولا تمل يمينًا ولا شمالاً قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» [1].

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٤٣) والحاكم برقم (٣٣١) وغيرهما عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو حديث حسن وقد صححه العلامة الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" برقم: (٥٩).

وقوله: (**وهيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحاءُ**)، وهذا وصف لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها حنيفية سمحة، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي: الأديان أحب إلى الله عز وجل قال: (الحنيفية السمحة) [(١)] .

قال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٢٠٣): أي: الشريعة المائلة عن كل دين باطل، والسمحة أي: السهلة فليس فيها مشقةٌ ولا تعسيرٌ ولا تعنت.ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل [(٢)] .ا هـ

وقوله: (**فاعْتَصِمِ**) الاعتصام: الامتساك بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، أي: تمسك بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعض عليها بنواجذك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٥٨	وَحْـيٌ مِـنَ اللهِ كـالقُرْآنِ شـاهِدُهُ	في سورةِ النَّجْمِ فاحْفَظْ ولا تَهِمِ

الشرح

أي: فكما أن القرآن وحي من الله، فكذلك السنة، فإنها وحي من الله قد يقول قائل ما هو الدليل على ذلك؟

---

(١) رواه البخاري في "صحيحه" معلقاً في كتاب الإيمان: (باب الدين يسر)، ووصله في "الأدب المفرد" برقم (٢٨٧)، وأحمد برقم: (٢١٠٧)، وله شواهد، يُحسن بها ذكرها العلامة الألباني في "تمام المنة" ص (٤٥)، وحسنه في "الصحيحة" برقم: (٨٨١).

(٢) [إغاثة اللهفان: (١/ ١٥٨)].

قال: (شاهِدُهُ في سورةِ النَّجْمِ) أي: الدليل والشاهد في سورة النجم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]، وجاء عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب، ومثله معه [١] »، وجاء عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: « اكتب فو الذي نفسي بيده ما يخرجُ منه إلا حق [٢] ».

وقوله: (فاحْفَظْ ولا تَهِمِ)، أي: احفظ ذلك الدليل وغيره من الأدلة على أن السنة وحي واحذر من الخطأ والغلط.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٥٩	خـيرُ الكـلام ومِـنْ خـيرِ الأنـام بَـدَا	مِـن خـيرِ قَلْـبٍ بـهِ قـدْ فـاهَ خـيرُ فـم

الشرح

قوله: (خيرُ الكلامِ) أي: سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الكلام، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..

---

(١) رواه أحمد برقم (١٧١٧٤) وأبو داود برقم(٤٦٠٤) وسنده صحيح.

(٢) رواه أحمد برقم (٦٥١٠) وأبو داود برقم (٣٦٤٦) وسنده صحيح.

[1] » الحديث، ، وفي مسند أحمد برقم: (١٤٣٣٤)، «**فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي محمد**»، الحديث.

وقوله: (**ومِنْ خيرِ الأنامِ بَدَا**) معنى بدَا، أي: ظهر.

قوله: (**مِن خيرِ قَلْبٍ بِهِ قدْ فاهَ خيرُ فمِ**) **والمعنى**: أي: ظهر هذا الخير من خير الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الذي قلبه خير قلب، وفمه خير فمٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجمع في هذا البيت **أربع وجوه في الخير**: خير الكلام من خير الأنام، ومن خير قلب ومن خير فم، وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته) [2] .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٦٠	وهــيَ البيــانُ لأسْرارِ الكتــابِ فبــالْ	إعْـراضِ عـنْ حُكْمِهـا كُـنْ غَـيرَ مُتَّسِـم

الشرح

قوله: (**وهيَ البيانُ**) أي: أن السنة مبينةٌ لما جاء مجملا من القرآن موضحة لأحكامه ومعانيه، وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٤٤].

---

(١) رواه مسلم برقم (٨٦٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) [رواه أحمد برقم (٣٦٠٠) وسنده حسن وقد حسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٨٤٢)].

وقال القرطبي في "تفسيره" (١/ ٢): ثم جعل إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه.ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فبين لهم القرآن بيانًا شافيًا كافيًا، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له [(١)] .ا هـ

وقوله: (فَبِالْإِعْراضِ عنْ حُكْمِها كُنْ غَيرَ مُتَّسِمِ) أي: كن غير متصف بالإعراض عن حكم السنة بل كن ممتثلاً لأحكامها عاملاً بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٦١	حَكِّــمْ نَبِيَّــكَ وانْقَــدْ وارْضَ سُــنَّتَهُ	مَعَ اليَقِينِ وحَوْلَ الشَّكِّ لا تَحُمِ

الشرح

قوله: (حَكِّمْ نَبِيَّكَ) أي: حَكِّم سنتَّه فيما تأتي وتذر، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

---

(١) [إعلام الموقعين (٤/ ١١٧)].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٣٠٦): يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.ا هـ

وقوله: (**وانْقَدْ**) هذا أمر بالانقياد وهو التمسك والالتزام بها، فلو نظرنا في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين ومن بعدهم، لوجدناهم في غاية الانقياد، **قال الحميدي:** روى الشافعي يومًا حديثًا.

فقلتُ: أتأخذ به؟ فقال: رأيتني خرجت من كنيسة أو علي زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟ قال الربيع: وسمعته يقول: أي: سماء تظلني، وأي أرض تقلني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أقل به [(١)] .

وقوله: (**وارْضَ سُنَّتَهُ**) أي: كن راضياً بسنته محكماً لها في نفسك وفي غيرك، وأول ما يبدأ الإنسان بنفسه ليكون قدوة لغيره قال النبي ﷺ : «**ألا وإن كل دم من دم الجاهلية موضوع وأول دم أضع منها دم الحارث بن عبد المطلب ربيعة كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل** [(٢)] ».

---

(١) [السير (١٠/ ٣٤-٣٥)].

(٢) [رواه أبو داود برقم (٣٣٣٤) والترمذي برقم (٣٠٨٧) وابن ماجه برقم (٣٠٥٥) عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه وهو حديث صحيح].

وقوله: (مَعَ اليَقِينِ وحَوْلَ الشَّكِّ) أي: فليكن تحكيمك وانقيادك عن رضاء في نفسك بيقين جازم. (لا تَحُمِ) أي: لا تتردد في اليقين وابتعد عن الشك والريب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٦٢	واعْضُضْ عَلَيها وجانِبْ كلَّ مُحْدَثَةٍ	وقُلْ لِذِي بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لا نَعَم

الشرح

قوله: (واعْضُضْ عَلَيها) العض هو الشد بالأسنان عل الشيء ويشير إلى حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**وعظنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة** [(١)] **»**.

قال ابن الأثير في "النهاية" (٣/ ٢٥٢): هذا مثل في شدة الاستمساك بأمر الدين؛ لأن العض بالنواجذ عض بجميع الفم والأسنان، وهي: أواخر الأسنان وقيل: التي بعد الأنياب.ا هـ

وقال ابن رجب: كناية عن شدة التمسك بها والنواجذ: الأضراس [(٢)] .ا هـ

---

(١) [أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٧) والترمذي برقم (٢٦٧٦) وابن ماجه برقم (٤٢) وأحمد برقم (١٧١٤٢) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) [جامع العلوم والحكم (٢/ ٧٨١)].

قلتُ: وخص العض بالنواجذ؛ لأنها أثبت وأقوى من العض بالثنايا؛ لأنه ربما لو سحبت لانسحبت، قال شيخنا العلامة المحدث يحيى الحجوري حفظه الله: قال أهل العلم: في هذا الحديث نكتة، وهو أنه ما قال: عضوا عليها بالثنايا، أو عضوا عليها بالرباعيات؛ فإنها إذا سُحبت ربما تطلع الثنايا معها، وإنما أمر بالعض بالنواجذ من حيث أنها أثبت وأقوى، وأن الشدة على الحق محمودة، يشد ويثبت عليه، أما الشدة على الباطل فمذمومة، نسأل الله العافية [(١)] .ا هـ

وقوله: **(وجانِبْ كلَّ مُحْدَثَةٍ)** أي: ابتعد واترك كل الأمور المحدثة المبتدعة وكلمة **(وجانب)** أبلغ من **ابتعد**، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥] أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب آخر.

وقوله: **(وقُلْ لِذِي بِدْعَةٍ يَدْعُوكَ لا نَعَمِ)** أي: إذا جاءك مبتدع يدعوك إلى بدعته فقل: لا أسمع ولا أقبل منك، وقد قال سلام بن أبي مطيع: إن رجلاً من أصحاب الأهواء قال لأيوب السختياني: يا أبا بكر؟ أسألك عن كلمة، قال: فولى أيوب، وجعل يشير بإصبعه: ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة [(٢)] .

ودخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله عز وجل؟ قال: لا، لتقومنَّ عني أو لأقومن [(٣)] .

---

(١) [شرح الأربعين النووية ص (٢١٢)].

(٢) [أخرجه الآجري في الشريعة (١/٤٣٩) وسنده صحيح].

(٣) [أخرجه الآجري في "الشريعة" (١/٤٣٩) وسنده صحيح].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٦٣	فَمَا لِذِي ريبَةٍ في نفسِهِ حَرَجٌ	مِمَّا قَضَى قطُّ في الأَيْمانِ مِنْ قَسَمِ

الشرح

قوله: (فَمَا لِذِي ريبَةٍ) أي: فليس لصاحب الشك الذي (في نفسِهِ حَرَجٌ) أي: ضيق وشك من سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديه القويم، فمن اتصف بهذا الوصف فما له (في الأَيْمانِ مِنْ قَسَمِ) أي: ليس له حظ ولا نصيب من الأيمان، ثم ذكر الدليل على هذا فقال:

١٦٤	(فَلا وَرَبِّكَ) أقْوَى زاجِرًا لأُوْلي الْ	أَلْبابِ والْمُلْحِدُ الزِّنْدِيقُ في صَمَمِ

الشرح

وهذا هو الدليل على ما ذكره في البيت الذي قبله وهو قول الله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، فهذه الآية أقوى زاجرًا لأصحاب العقول السليمة الذين يحرصون على نجاة أنفسهم.

وقوله: (والْمُلْحِدُ) هو المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه [(١)] . اهـ

وقوله: (الزِّنْدِيقُ) هو الذي يبطن الكفر، ويظهر الإيمان.

وقوله: (في صَمَمِ) أي: والصمم في كلام العرب: الانسداد.

قلتُ: فهم في صمم عن سماع الحق ومن باب أولى عن العمل به.

---

(١) [ذكره ابن القيم عن ابن السكيت في بدائع الفوائد (١/ ١٦٩)].

فصلٌ: في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة

لما أنهى رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى الوصية بكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَقد هذا الفصل في تعلم الفرائض وعلوم الآلة، وحذَّر من العلوم المبتدعة التي تفسد على المرء دنياه وآخرته، فبدأ بالفرائض **فقال**:

١٦٥	وبـالفرائضِ نصـف العِلْـم فَـاعْنَ كَـما	كَما أوْصَى الإلهُ وخيرُ الرسْلِ كُلِّهِمِ

الشرح

قوله: (**وبالفرائضِ**) أي: وبعلم الفرائض وهو علم المواريث ويمسى علم قسمة التركات وهو علمٌ يعرفُ به من يرث ومن لا يرث، مقدار ما لكل وارث[(١)].

وقوله: (**نصف العِلْمِ**) هذا مبني على حديث لا يصح جاء عن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال :قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم وهو ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي**»[(٢)].

وقوله: (**فَاعْنَ**) هذا أمر بالعناية بعلم الفرائض والاهتمام به.

---

(١) وهذا أحسن تعريف لعلم الفرائض فيما يظهر لي وهو تعريف الدردير في الشرح الكبير (٤/ ٤٥٦).

(٢) **ضعيف**. أخرجه ابن ماجه برقم (٢٧١٩) والدارقطني برقم (٤٥٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٢) والبيهقي (٦/ ٢٠٩) وغيرهم وفي سنده حفص بن عمر ضعيف، وقد ضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الإرواء" برقم (١٦٦٥).

وقوله: (كَما أَوْصَى الإلهُ وخيرُ الرسْلِ كُلِّهِمِ) أي: قد أوصى الله سبحانه وتعالى، وأوصى به خير الرسل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٦٦	مِــن فضْــلِها أن تَــوَلَّى اللهُ قِسْــمَتَها	ولَمْ يَكِلْهــا إلى عُــرْبٍ ولا عَجَــمِ

الشرح

فمن فضل الفرائض وشرفها: أن الله تعالى تولى قسمة الحقوق المتعلقة بالتركة بنفسه لأصحاب الفروض والعصبة وغيرهما، فأعطى كل ذي حقه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إن قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث [(١)] ».

فبينها الله مفصلة في القرآن بشروطها، وما جاء في السنة هو مجرد أحكام قليلة أو مجرد توضيح وهو علم في غاية الأهمية، ولم يكل تقسيم الفرائض إلى أحد من الناس.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٦٧	يُوصــيكُمُ اللهُ) مِــنْ بَعْــدِها اتَّصَــلَتْ	وفي الكَلالَةِ أُخْرَى فَادْنُ واغْتَنِمِ

الشرح

ذكر أن الله بين قسمة الفرائض في سورة النساء في ثلاثة آيات: الآية الأولى (يُوصِيكُمُ) رقم(١١)، والآية التي بعدها رقم (١٢) وآخر آية رقم (١٧٦).

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٦٧) وأبو داود برقم: (٢٨٥٣)، والترمذي برقم: (٢١٢٠) وغيرهم، عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو **حديث حسن**، من أجل إسماعيل بن عياش إذا روى عن أهل بلده الشاميين وهذا منها **فحديثه حسن**.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" (٢/ ١٩٢): هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك.ا هـ

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة، هن آيات المواريث المتضمنة لها، فإنها مع حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الثابت في صحيح البخاري: «**ألْحِقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**» مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومحمد ابن مسلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك. ا هـ ص (١٦٦).

قوله: (يُوصِيكُمُ اللهُ) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله: (مِنْ بَعْدِها اتَّصَلَتْ) أي: والآية التي بعدها وهي متصلة بها وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء:١٢].

وقوله: (وفي الكَلالَةِ أُخْرَى) يُشير إلى آخر آية في سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وبالمراد **بالكلالة**: من مات وليس له ولد ولا والد. **وقوله**: (فَادْنُ واغْتَنِمِ) أي: اقترب من تفهم الآيات ومعرفة تفسيرها تغنم فهم الفرائض.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٦٨	وخُذْ إذا شِئتَ ما قد تَستَعِينُ بِهِ	مِنْ آلةٍ تُلْفَها حَلاًّ لِمُنْبَهِم
١٦٩	كالنَّحْوِ والصَّرْفِ والتَّجْويدِ معْ لُغَةٍ	يُدْرَى بِها حَلَّ ما يَخْفى مِنَ الكَلِمِ

الشرح

حث الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذين البيتين على تعلم علوم الآلة والعلوم على **قسمين**:

١- علوم تقصد لذاتها كالتفسير والتوحيد العقيدة والفقه الشرعي، وتسمى بعلوم الغاية.

٢- علو تقصد لغيرها كالنحو والصرف والبلاغة، والتجويد ومصطلح الحديث وغيرها، وتسمى علوم الآلة، فيتعلمها الإنسان من أجل معرفة علوم الغاية، ونبه الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يأخذ طالب العلم ما يستعين به على فهم علوم الغاية، ولا تكن علوم الآلة هي المقصودة لذاتها، فيقضي عمره في علوم الآلة.

وقوله: (**تُلْفَها**) أي: تجدْها وأصلها تُلفيها فلما كانت جواب الشرط حذفت الياء لالتقائها مع ساكن **والقاعدة الصرفية**: أنه إذا التقى ساكنان وأولهما حرف علة والساكن الثاني حرف صحيح يحذف حرف العلة وفعل الشرط **خُذ**.

وقوله: (**حَلاًّ لِمُنْبَهِمِ**) أي: تجد علوم الآلة حلاًّ لما أشكل عليه، وما استطعت فهمه والأمر المنبهم هو الأمر المشكل.

ثم ذكر بعض علوم الآلة فقال: (**كالنَّحْوِ**)، وهو علمٌ بقواعد يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناء.

(والصَّرْفِ) هو تغييرٌ في بِنية الكلمة لغرض لفظي أو معنوي.

(والتَّجْويدِ) هو إعطاء كلِّ حرف حقه ومستحقه من مخرج، وصفة، وغنة، ومد، وترقيق، وتفخيم، وغير ذلك من أحكام التجويد. وكلٌّ واحد من هذه الفنون تُدَّرسُ على حدة.

وقوله: (**معْ لُغَةٍ**)، هل اللغة غير النحو والصرف؟

الجواب: النحو والصرف فرعان من فروع اللغة، لكنه أراد بقية الفروع كالبيان والمعاني والبديع والوضع والاشتقاق والعروض والقافية وغيرها.

قوله: (**يُدْرَى بِها حَلَّ ما يَخْفى مِنَ الكَلِمِ**): أي: يعرف بها وبغيرها من علوم الآلة ما خفي معناه من كلام الله تعالى وكلام رسوله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

١٧٠	واحْـذَرْ قـوانينَ أرْبـابِ الكَـلام فـمَا	بِهـا مِـنَ العِلْـمِ غـيرُ الشَّـكِّ والـتُّهَم

الشرح

هذا تحذير لطالب العلم من قوانين علم الكلام، فإنهم وضعوا قواعد لتحريف كلام وكلام رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللرد على من يخالفهم ويخالف أهوائهم.

وقوله: (فَما بِها مِنَ العِلْمِ غيرُ الشَّكِّ والتُّهَمِ) أي: ما يُجنى من علم الكلام سوى الشكوك والتهم والأوهام الكاسدة والظنون الفاسدة فهو أُسُّ السفه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧١	قــامُوسُ فَلْسَــفَةٍ مِفْتــاحُ زَنْدَقَــةٍ	كَــمْ مَــنْ مُلِــمٍّ بــهِ قَــدْ بــاءَ بالنَّــدَمِ

الشرح

قوله: (**قامُوسُ**) من قمس والقاف والميم والسين أصل صحيح يدل على غمس شيء في الماء، والماء نفسه يسمى بذلك. من ذلك قمست الشيء في الماء: غمسته. ويقال: إن قاموس البحر: معظمه [(١)] . اهـ

وقوله: (**فَلْسَفَةٍ**) والفيلسوف: يونانية، أي: محب الحكمة، أصله فيلاً: وهو المحب، وسوفا: وهو الحكمة، والاسم: الفلسفة، مركبة، كالحوقلة. وأساف: هلك ماله [(٢)] . اهـ

والمعنى: أنه مقدمات علم الكلام، (قاموس فلسفة) صفٌّ كلام، وجمعُ جمل فلسفية، والنتيجة من ذلك (**مفتاح زندقة**) أي: يكون سببًا في زندقته ونفاقه، قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق [(٣)] .ا هـ

وقال الإمام أحمد: علماء الكلام زنادقة وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح [(٤)] .ا هـ

---

(١) [انظر مقاييس اللغة مادة (قمس)]

(٢) [راجع لسان العرب].

(٣) [الحجة في بيان المحجة (١/١١٧)].

(٤) [مجموع الفتاوى: (٦/٢٤٣)].

ولقد تكلم السلف على أهل الكلام بكلام شديد منها ما قاله الإمام الشافعي: حكمي في هل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر، والقبائل، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام [(١)] . اهـ

وقوله: **(كَمْ منْ مُلِمٍّ بِهِ قدْ باءَ بالنَّدَمِ)** أي: كم ممن ألمَّ وتمكن في علم الكلام، وضيع عمره فيه فباء بالخسارة والندم على ضياع عمره في علم الباطل، وقد شهد على ذلك من كان إماماً منهم فهذا الرازي يقول:

نهايــة إقــدام العقــول عقــال ... وأكثــر ســعي العــالمين ضــلال
وأرواحنا في وحشة من جسـومنا ... وحاصــل دنيانــا أذى ووبــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنـا ... سوى أن جمعنا فيـه قيـل وقـالوا
وكم قد رأينا مـن رجـال ودولـة ... فبـادوا جميعـا مســرعين وزالـوا
وكم من جبال قد علت شرفاتهـا ... رجــال فبــادوا والجبــال جبــال

ثم يقول: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن [(٢)] .ا هـ

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي [(٣)] .ا هـ

---

(١) [جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤١) وشرف أصحاب الحديث ص (٧٨)].

(٢) [طبقات الشافعيين ص (٧٨٠)].

(٣) [السير (٢١/ ٥٠١)].

ثم تاب من علم الكلام وألف كتاب "تهافت الفلاسفة"، والشهرستاني لما تاب قال:

لعمري لقد طفت المعاهـد كلهـا وسيرت طرفي بـين تلـك المعـالم

فلـم أر إلا واضـعاً كـف حـائر عـلى ذقـن أو قارعـاً سـن نـادم

فرد عليه محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني:

لعلك أهملت الطواف بمعهـد ال رسول ومن والاه مـن كـل عـالم

فما حار مـن يهـدي بهـدي محمـد ولسـت تـراه قارعـاً سـن نـادم

وقال الجويني: اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور [(١)] .ا هـ

ومما ينسب إلى الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال:

كُلُّ العلومِ سوى القـرآنِ مشـغلةٌ إلا الحديث وإلا الفقـه في الـدين

العلـم مـا قـال فيـه حـدثنا وما سوى ذاك وسواس الشـياطين

[انتهى من طبقات الشافعيين ص (٦٠٧)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٢	رامُـوا بِهـا عَـزْلَ حُكْـمِ اللهِ واقْتَرَحُـوا	لِلْحَـقِّ رَدًّا وإنْقـاذًا لِحُكْمِهِـم

الشرح

قوله: (رامُوا بِها) أي: قصدوا بالقوانين والقواعد التي وضعوها في علم الكلام.

---

(١) [السير (١٨/ ٤٧٤)].

قوله: (**عَزْلَ حُكْمِ اللهِ**) العين والزاء واللام أصل صحيح، يدل على تنحية وإمالة تقول: عزل الإنسان الشيء يعزله، إذا نحاه في جانب. وهو بمعزل وفي معزل من أصحابه، أي في ناحية عنهم. **والعزلة**: الاعتزال. والرجل يعزل عن المرأة، إذا لم يرد ولدها [(١)] . اهـ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود:٤٢]، والمعنى أنه أرادوا بقواعدهم الباطلة الإمالة والتنحي عن أحكام الله تعالى ومجانبة الحق.

وقوله: (**واقْتَرَحُوا لِلْحَقِّ رَدًّا**) **والاقتراح**: ابتداع الشيء تبتدعه وتقترحه من ذات نفسك من غير أن تسمعه، وقد اقترحه فيهما. **واقترح عليه بكذا**: تحكم وسأل من غير روية [(٢)] .ا هـ

والمعنى: أنهم ابتدعوا القواعد الفاسدة والباطلة لردِّ الحق وعدم قبوله.

وقوله: (**وإنْقاذًا لِحُكْمِهِم**) النفاذ أي: الجواز والمعنى أنهم أرادوا بقواعدهم تجويزا لآرائهم وأحكامهم الفاسدة، فهذه بعض مقاصدهم من القواعد التي قعدوها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٣	يُــرُوْكَ إنْ تَــزِنِ الــوَحْيَيْنِ مُجْتَرِئًــا	عَلــيهما بِعُقُــولِ المُغْفــلِ العَجَــم

الشرح

وقوله: (**يُرُوْكَ**) فعل مضارع من أراك وأصلها يرونك فحذفت النون لضرورة الشعر أي: يجعلونك تزن القرآن والسنة بالعقل فالميزان عندهم هو العقل فما قبله

---

(١) [مقاييس اللغة (٤/٣٠٧)].

(٢) [لسان العرب (٢/٥٥٨)].

العقل قُبل وما لم يقبله رُدَّ وهذا ما يسمى عند أهل الكلام بقانون التأويل فتكون مجترئاً على القرآن والسنة تقبل ما قبلته قواعدهم وترد ما ردته.

وقوله: (**بِعُقُولِ المُغْفَلِ العَجَمِ**) أي: أن أكثر من اعتنى بعلم الكلام أصحاب العقول المغفلة المليئة بالباطل، وأهل الأعاجم فلم يكن موجودًا في صدر هذه الأمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٤	وأنْ تُحكِّمَهـــا فِي كُـــلِّ مُشْـــتَجَرِ	إذْ لَيْسَ فِي الوَحْيِ مِن حُكْمٍ لِمُحْتَكِمِ

الشرح

وقوله: (**وأنْ تُحكِّمَها**) أي: ويريدون أن تحكم قواعدهم في كل مشتجر أي: في كل منازعة وخصومة.

وقوله: (**إذْ لَيْسَ فِي الوَحْيِ مِن حُكْمٍ لِمُحْتَكِمِ**)، هذا على حد زعمهم أن لا يوجد في القرآن والسنة حكم لمحتكم ويريدون من الناس أن يتحاكموا إلى قواعدهم الباطلة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٥	أمّـا الكِتـابُ فحَـرِّفْ عَـنْ مَواضِـعِهِ	إذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْريفُ لِلْكَلِمِ

الشرح

هذا هو قولهم في القرآن الكريم تحريف الكلم عن مواضعه، قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء:٤٦].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٢٨٥): أي: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدًا منهم وافتراء.ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التحريف هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره [١] .ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيا عجبًا لفرقة التحريف وما جنت على القرآن والإيمان [٢] . ا هـ

وقوله: (**إِذْ لَيْسَ يُعْجِزُكَ التَّحْرِيفُ لِلْكَلِمِ**) فهذه وصيتهم بالقرآن فيقولون: لا يعجزك التحريف أيها المحرف، فهذا ليس أمراً صعباً ولا شاقاً.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٦	كـذا الأحادِيـثُ آحـادٌ ولـيْس بِهـا	بُرْهـانُ حـقٍّ ولا فصْـلٌ لِمُخْتَصِـم

الشرح

وهذا هو قولهم في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها أخبار آحاد، وأخبار الآحاد عندهم لا تقبل في الاعتقاد، ومقصدهم من هذا رد السنة النبوية، وهذه المقولة أول ما عرفت عن المعتزلة، وقد ذكر الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "الرسالة" تحت فصل (الحجة في تثبيت خبر الواحد)، وساق أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وكذلك الإمام ابن القيم في "الصواعق المرسلة" ذكر أدلة كثيرة على قبول خبر

---

(١) [الصواعق المرسلة: (١/ ٢١٥)].

(٢) [شفاء العليل: (١/ ٨٣)].

الآحاد، وقد أُفرد هذا الموضوع بالتأليف، فهناك رسالة طيبة بعنوان (وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة والأحكام) للعلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن فيها أن تخصيصها بالأحكام دون العقائد تخصيص بدون مخصص، وأنه باطل بل إن ابن القيم ذكر أن هذا التفريق باطل الإجماع، ولولا خشية الإطالة لسردت الأدلة على وجوب خبر الآحاد في العقيدة وغيرها، وقد بوب البخاري في "صحيحه" (**كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام**).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٧	وقَـدْ أَبَـى اللهُ إلا نَصْـرَ مـا خَـذَلُوا	وكَسْرَ ما نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلى رَغَمِ

الشرح

قوله: (**وقَدْ أَبَى اللهُ إلا نَصْرَ ما خَذَلُوا**) أي: أن أهل الكلام خذلوا الكتاب والسنة فأبى الله إلا نصر كتابه وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال:٨]، وقال: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٨٢].

وقوله: (**وكَسْرَ ما نَصَرُوا مِنْهُمْ عَلى رَغَمِ**) أي: أبى الله إلا كسر آرائهم الفاسدة وقواعدهم الباطلة الرغم منهم ورغم أنوفهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٨	كَـــذا الكَهانَـــةُ والتَّنْجِـــيمُ إنَّهُـــمَا	كُفْـرانِ قَـدْ عَبَثَـا بالنـاسِ مِـنْ قِـدَم

الشرح

وهذا تحذيرٌ أيضًا من علوم باطلة تفسد على المرء دينه وهي الكهانة والتنجيم

وقوله: (كَذا الكَهانَةُ) أي: احذر كذلك من الكهانة وهي ادعاء علم الغيب.

قال ابن الأثير: الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار [(١)] .ا هـ

وقد حذر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكهانة وحذر من إتيانهم جاء عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: قلت: يا رسول الله أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: «**فلا تأتوا الكهان**»، قال قلت: كنا نتطير قال: «**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم** [(٢)] »، وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أتى كاهنًا، أو عرافًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد** [(٣)] »

---

(١) [النهاية (٤/٣٩٩)].

(٢) رواه مسلم برقم (٥٣٧).

(٣) رواه أحمد برقم: (٩٥٣٦)، والحاكم برقم: (١٥)، وهو حديث حسن بشواهده، وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٩٣٩).

وأما التنجيم، فالمراد به كما قال شيخ الإسلام: هو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكي والقوابل الأرضية [(١)] .ا هـ

وقد حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تعلمه فقال: «**من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر؛ زاد ما زاد** [(٢)] »،

وجاء عن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أنه قال: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا** [(٣)] ».

وقوله: (**إِنَّهُمَا كُفْرانِ قَدْ عَبَثَا بالناسِ مِنْ قِدَمِ**) أي: أن تعلم الكهانة والتنجيم كفر وهو علم قديم وليس جديدًا، قد أفسد على الناس فطرهم ودينهم.

قال الحافظ في "الفتح" (١٠/ ٢٢٥) في الكلام على قول البخاري (باب السحر): وفي إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]، فإن ظاهرها، أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية على لسان الملكين، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرًا .ا هـ

---

(١) [كما في مجموع الفتاوى: (٣٥/ ١٩٢)].

(٢) رواه أبو داود برقم (٣٩٠٥) وابن ماجه برقم (٣٧٢٦) وأحمد برقم (٢٨٤٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (٧٩٣) والعلامة الوادعي في "الصحيح المسند" برقم(٦٤٢).

(٣) [رواه مسلم برقم: (٢٢٣٠)].

تنبيهٌ: قال العلامة سليمان بن عبد الله النجدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك. وينبغي أن يقطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه.

الثالث: تعلم منازل الشمس والقمر، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه، فكره قتادة وسفيان ابن عيينة تعلم المنازل، وأجازه أحمد وإسحاق وغيرهما [(١)] .ا هـ

قلت: وذكر هذه الأقسام ابن رسلان [(٢)] .

---

(١) ["تيسير العزيز الحميد" (٣٧٨- ٣٧٩) بتصرف].

(٢) ["معالم السنن" (٤/ ٢٢٩-٢٣٠)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٧٩	إسنادُهَا حِزْبُ إبْليسَ اللَّعينِ كَمَا	مُتُونُهَا أكْذَبُ الْمَنْقولِ مِنْ كَلِم

الشرح

أي: أن مصدر هذه العلوم ومرجعها إلى إبليس اللعين، وهذا وصفٌ له بأنه لعين على وزن فعيل وهي من صيغ المبالغة قال تعالى: ﴿لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء:١١٨]

فائدة: وسمي إبليس لأنه أبلس من الخير، أي: أويس ولعن والمبلس هو البائس ومنه، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقوله: (**كَمَا مُتُونُهَا أَكْذَبُ الْمَنْقولِ مِنْ كَلِمِ**) أي: وكذلك يحتوي مضمونها على الكذب والدجل والشعوذة، فما يقوله الكاهن والعراف، والمنجم وهو من الكذب الذي مستنده من الشياطين، وهو من أكذب الكذب، وأبطل الباطل جاء عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: سأل أناس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكهان؟ فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**ليسوا بشيء**»، قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون أحيانا الشيء يكون حقًّا، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني، فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كَذْبة** [(١)] **»**..

وفي رواية للبخاري برقم: (٣٢١٠): «فيكذبون مائة كذبة من عند أنفسهم [(٢)] **»**.

---

(١) [رواه البخاري برقم (٦٢١٣) ومسلم برقم (٢٢٢٨)].

(٢) وفي هذا الباب ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رواه البخاري برقم: (٤٧٠١).

=

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٠	مَـا لِلـتُّرابِ ومـا لِلْغَيْـبِ يُدْرِكُـهُ	مَـا لِلتَّصَـرُّفِ والمخْلـوقُ مِـنْ عَـدَم

الشرح

بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا البيت بطلان ما يفعله الكهان والمنجمون وهي أنهم يخطون في التراب خطوطاً، ثم من خلال هذه الخطوط يقولون: سيحصل كذا وكذا أو سيولد فلان أو سيموت فلان فأيُّ ارتباط بين التراب والأمور المغيبة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨١	لـوْ كانتِ الجِنُّ تَدْرِي الغَيْبَ ما لَبِثَتْ	دَهْـرًا تُعـالِجُ أصـنافًا مِـنَ الألَمِ

الشرح

هذا رد على من يقول: إن الجن تعلم الغيب، فموت سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أبر الأدلة على عدم علمهم للغيب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

= وفي صحيح مسلم برقم: (٢٢٢٩)، عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابن كثير في "تفسيره" (٦/ ٤٤٢- ٤٤٣): يذكر تعالى كيفية موت سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكيف عَمَّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه، وهي منسأته.ا هـ

قلت: ومما يبين أن الجن لا تعلم الغيب، قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فهذا نص صريح في بطلان قولهم، بل جميع من في السموات والأرض لا يعلمون الغيب، قال تعالى: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لله فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس:٢٠]، حتى نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله قال تعالى: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام:٥٠]، وقال: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فلا يطلع على الغيب نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٢	أمَّـا النُّجُـومُ فَـزَيْنٌ لِلسَّـمَا ورُجُـومَـا للشَّـياطِينِ طَـرْدًا لاسْـتِمَاعِهِم	
١٨٣	كـما بِهـا يَهْتَـدِي السَّـارِي لِوِجْهَتِـهِ في البَرِّ والبَحْرِ حيثُ السيْرُ في الظُّلَمِ	

الشرح

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد النجوم، وأن الله خلقها لثلاثة أشياء:

١- زينة للسماء، قال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات:٦-٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

٢- رجوماً للشياطين قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات:٧-٨]

٣- علامات يُهتدى بها في السيِّر قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]، وقال: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به [(١)]».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب بدء الخلق تحت باب في النجوم، وقد وصله ابن جرير في تفسيره (١٤/١٩٣) وسنده صحيح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٤	والنَّيِّرَيْنِ بِحُسْبَانٍ وذلكَ تَقْـ	ـدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ المُسْبِغِ النِّعَمِ

الشرح

(والنَّيِّرَيْنِ) المراد بهما الشمس والقمر وهو من باب التغليب وإلا فالذي يوصف بالنور هو القمر قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦]، فهما يسيران بحسبان كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨]، وقال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٢٧٣): أي: يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٥	فمَنْ تَأَوَّلَ فيها غَيْرَ ذاكَ فَقَا	ما ليْسَ يَعْلَمُهُ فَهو الكَذُوبُ سَمِ

الشرح

أي: فمن تأول في النجوم غير ما خلقت له، وقد تقدم أن الله خلق النجوم لثلاثة أشياء: زينةٌ للسماء ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فالنجوم ليس

لها تعلق في تصريف ما يقع في السموات والأرض، ولا في سعادة البشر وشقاءهم فمن قال فيها غير ما خلقها لأجله فقد قال ما ليس له به علم.

وقوله: (**فَهو الكَذُوبُ سَمِ**) أي: اجعل الكذب علامة لهؤلاء يعرفون به والكذوب على وزن فعول من صيغ المبالغة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٦	كَـــالْمُقْتَفِينَ لِعُبَّـــادِ الْهَياكِـــلِ فِي	عَـزْوِ التَّصَـرُّفِ والتـأثِيرِ للـنُّجُم

الشرح

أي: فمن كان مشتغلاً بالتنجيم فهو كعبَّاد الهياكل الذين بُعث فيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فكانوا يعبدون النجوم والكواكب، قال شيخ الإسلام: وكانوا يتخذون الكواكب والشمس والقمر أربابًا يدعونها من دون الله، ويبنون لها الهياكل [(١)] .ا هـ

وقال ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٢٦١): وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس، ثم القمر .ا هـ

---

(١) [انظر مجموع الفتاوى (٦/ ٢٥٤)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٧	والكـــاتِبِينَ نِظامًـــا في عِبادَتِهـــا	عَقْـدًا وكَيْفًـا وتَوْقِيتًـا لِنُسْـكِهِم

الشرح

أي: أن هؤلاء المنجمين وأصحاب الهياكل عباد النجوم والكواكب، قد ألفوا كُتبًا ومؤلفات قرروا فيها قواعد ونظماً يمشون عليها في طريقتهم من حيث الكيف والتوقيت ويسمونها علومًا، وهي قواعد باطلة، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن قومًا يحسبون أبا جاد، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك خلاق [(١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٨٨	فَـذَا سُـعُودٌ وذَا نَحْـسٌ وطَلْسَـمُهُ	كَـذَا ونَاسَـبَهُ ذا كَـمْ بِخَرْصِـهِم

الشرح

يزعمون أنهم يصِلُون لمعرفة السعيد والنحيس وغير ذلك، فذا سُعُود من سَعَدَ يسعد سعودًا، والسعادة ضد الشقاوة.

وقوله: (**وذَا نَحْسٌ**) من نحِس كفرح فهو نَحْسٌ (**وطَلْسَمُهُ**) مفرد طلاسم وهي الأمور الخفية، فالكلام الذي يُسمع ولا يفهم منه شيئًا أو يُقرأ ولا يستبين له معنىً يسمى طلاسم. (**كَذَا ونَاسَبَهُ ذا**) أي: أن هذه الأمور التي يفعلونها ناسب الطلاسم.

---

(١) [أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، برقم (١٩٨٠٥) وسنده صحيح].

وقوله: (كَمْ بِخَرْصِهِمِ) كمْ للتكثير والخرص: هو الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات:١٠]، أي: الكذابون أي: كل ذلك يقولونه كذباً ودجلاً، ثم لما أنهى كلامه فيما يتعلق بذم التنجيم والكهانة والسحر شرع في التحذير من المجلات الباطلة والماجنة، **فقال**:

١٨٩	واحْـذَرْ مَجَـلاّتِ سُـوءٍ في المْـلاَ نُشِـرَتْ	تَـدعُو جِهـارًا إلى نَشْـرِ الـبَلاَ بِهِـم

الشرح

وهذا تحذيرٌ لطلاب العلم خصوصًا وللناس عمومًا من مجلات السوء والشر التي تنشر السوء والأخلاق الفاسدة والرذيلة، وتنشر فيها صور ذوات الأرواح، وفيها إشاعة الفواحش، فيجب على كل مسلم أن يكون حذرًا، **منها** ومحذرًا لغيره منها رحمة الله على الناظم، كيف لو رأى زماننا، وهناك ما هو أشد من المجلات وهي القنوات الفضائية والإنترنت، هذه ما كانت موجودة في زمانه والشر فيها أكثر من المجلات، فكم من أخلاق فسدت، وكم من بيوت خربت، وكم من أسرة فسدت، وتشتت وفسد على بعض الناس دينه إما كُلِّيًا وإما جزئيًا، فنصيحتي لطلاب العلم أن يتقوا الله في السر والعلن، وأن يتركوا الإنترنت ولا يقتربوا من الفتن ولا يقول: أنا عندي إيمان، أنا طالب علم عندي ما يمنعني من النظر إلى ما حرم الله، والله وتالله إن السلامة لا يعدلها شيء.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٠	تَـدْعُو لِنَبْـذِ الهُـدَى والـدِّينِ أجْمَعِـهِ	والعِلْـم بـلْ كـلِّ عَقْـل كامِـل سَـلَم

الشرح

فمن أهداف تلك المجلات: الدعوة إلى نبذ الهدى والدِّين الذي جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، والمراد **بالهدى** في الآية هو العلم النافع، والمراد بدين الحق هو العمل الصالح.

وتدعو تلك المجلات لنبذ العلم، فهي حربٌ على العلم، وأهله فكم ينتقص فيها من علم الشريعة وكم ينتقص فيها من عالم ويقلل فيها من شأنه ويُحتقَر.

قوله: (بلْ كلِّ عَقْلٍ كامِلٍ سَلَمِ) أي: هي مفسدةٌ للعقول الكاملة السليمة، فكم من إنسان كان عاقلاً رزينا، فأصبح عقله فاسدًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩١	ولِلرُّكُـــونِ إلى الـــدنْيا وزُخْرُفِهـــا	والرَّتْعِ كالحَيَوانِ السّائِمِ البُهُمِ

الشرح

ومما تدعو إليه تلك المجلات: الركون إلى الدنيا وزخرفها، بحيثُ يصير لا هم للإنسان إلا في الدنيا ومتاعها وشغله الشاغل في جمعها، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ

﴿الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى:٢٠].

وقوله: (**والرَّتْعِ كالحَيَوانِ السّائِمِ البُهُمِ**) أي: ومما تدعو إليه تلك المجلات: أن تجعل الإنسان يرتع في هذه الدنيا فلا هم له إلا في مأكله ومشربه وفرجه فيصبحُ كبهيمة الأنعام كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٢	ولِلتَّهَتُّــكِ جَهْــرًا والخَلاعَــةِ مــعْ	نَبْـذِ المُـروءَةِ والأخْـلاقِ وَالشِّـيَم

الشرح

ومما تدعو إليه تلك المجلات: التهتك وهو الانحلال من الأخلاق والستر والعفة والصيانة، ويُجهَر فيها بذلك وليس عند أصحابها حياءٌ من الله ولا من عباده وتدعو تلك المجلات إلى الخلاعة والفاحشة وتدعو أيضًا إلى نبذ المروءة، **قال الجرجاني**: المروءة هي: قوة للنفس مبدأ لصدور الأفعال الجميلة عنها المستتبعة للمدح شرعا وعقلا وفرعا [(١)] .ا هـ

---

(١) [التعريفات ص (٢١٠)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٣	والاعْـتِمادِ عَـلى الأسْـبابِ مُطْلَقِهـا	دُونَ المُسَبِّبِ والإخلاقِ مِنْ عَدَمِ

الشرح

ومما تدعو إليه تلك المجلات: الاعتماد على الأسباب دون المسبِّب وهو الله سبحانه وتعالى فتعطل عبادة التوكل على الله، والاعتماد عليه والثقة به، فلا تتكلم إلا على قدرات الإنسان دون تعليقها بمشيئة الله تعالى والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» [(١)].

وفي حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله أعقله وأتوكل أو أطلقها وأتوكل قال: «**اعقلها وتوكل**» [(٢)].

فالأمور بيد الله فيفعل الإنسان السبب ويتوكل على الله فهو الخلاَّق من عدم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٤	والكُفْـرِ بـاللهِ والأمْـلاكِ مـعْ رُسُـل	والوَحْيِ معْ قَدَرٍ والبَعْثِ لِلرِّمَمِ

الشرح

ومما تدعو إليه تلك المجلات: الكفر بالله أو التشكيك بوجود الرب سبحانه وتعالى وتدعو أيضًا إلى الكفر بالملائكة، إما بجحود وجودهم أو الاستخفاف بهم، وغير ذلك، وتدعو أيضًا إلى الكفر بالرسل والاستهزاء بهم، أو إنكار

---

(١) [رواه مسلم برقم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

(٢) [رواه الترمذي برقم (٢٥١٧)، وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في "صحيح الجامع" برقم (١٠٦٤)].

بعضهم أو ما جاءوا به أو بعض ما جاءوا به وتدعو أيضًا إلى الكفر بالوحي، ويلزم منه التكذيب بالكتب المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وفيها دعوة إلى التكذيب بالجزاء والحساب والبعث للأجسام والعظام التي صارت بالية، فجمع في هذه البيت دعوة تلك المجلات إلى الكفر بأصول الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٥	وَلِاعْتِنَاقِ الطَّبِيعِيَّاتِ لَيْسَ لَهَا	مُدَبِّرٌ فاعِلٌ ما شاءَ لَمْ يَضِم

الشرح

ومما تدعو إليه اعتناق الطبيعات، وهي اعتقاد أن الذي أوجد هذا الكون هي الطبيعة، فيدعون أصحاب الطبيعية إلى هذه العقيدة الباطلة، وأن هذا الكون ليس له خالقٌ، ولا مدبرٌ، ولا ربٌ أوجده، هي دعوة الملاحدة قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٦	قامَتْ لَدَيْهِمْ بِلا قَيُّومٍ أبْدَعَها	مُسَخَّراتٍ لِغاياتٍ مِنَ الْحِكَم

الشرح

أي: جميع المخلوقات لدى الملاحدة، قامت بلا قيوم أي: بلا خالق ولا مدبر أبدعها، أي: أوجدها.

وقوله: (مسخرات)، أي: أنكروا أنها مسخرات، بإذن الله لحكمة بالغة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٧	سَـمَّوْهُ مَـدْحًا لـهُ العِلْـمَ الْجَدِيـدَ بَـل الْـ	كُفْر القَدِيم ومِنْهُ القَوْلُ بالقِدَمِ

الشرح

هذا حالُ أهل الباطل، أنهم يأتون بالباطل في كل زمان ومكان على صورة، تناسب ذلك الزمان، فهؤلاء الملاحدة سموا هذه العقيدة الباطلة مدحًا له العلم الجديد، وهذا حالُ أهل الباطل في كل زمان ومكان، ما يُعلمُ أن أصحاب باطل سمَّوا باطلهم باطلاً، بل يسمونه بأسماء برَّاقة، وعناوين جذابة وفرعون، قال لقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر:٢٩].

وقوله: (بَلِ الكُفْرِ الْقَدِيم) أي: هذا الذي يدعون إليه من الإلحاد والزندقة، وإنكار وجود الرب، وهو كفر قديم معروف، قد حصل في الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣].

قوله: (وَمِنْهُ) الضمير عائدٌ على الكفر أي: ومن هذا الكفر.

وقوله: (القَوْلُ بالقِدَمِ) وهو قول الفلاسفة يقولون بقدم العالم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٨	تَقَسَّـمُوهُ المُلاحِيـدُ الطُّغـاةُ عَـلى	سَهْمٍ وأكثَرَ لا أهْلاً بِذِي القِسَمِ

الشرح

هذا تشبيهٌ لحال هؤلاء المعاصرين من الملاحدة، أنهم تقاسموا هذا الكفر بين مستقل ومستكثر كما يُتقاسم الميراث.

وقوله: (لا أَهْلاً بِذِي القِسَمِ)، وهذا دعاء من الناظم عليهم وعلى هذه التقاسيم الباطلة التي تقاسموها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

١٩٩	وكُلَّما مَرَّ قَرْنٌ أوْ قُرُونٌ أتَوْا	بِهِ عَلى صُورَةٍ أُخْرَى لِخُبْثِهِم

الشرح

وهذا حالُ أهل الباطل في زماننا يأتون بباطلهم في صورة جديدة على ما يناسب عصرهم فالشر أصله واحد ولكل قوم وارث.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٠	بَعْضُ الْخَبِيثِ عَلى بَعْضٍ سَيَرْكُمُهُ	رَبِّي وَيَجْعَلُهُ في النارِ للضَّرَم

الشرح

هذه نهاية الخبيث يجمعه الله بعضه على بعض فيركمه ويجعل في النار، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ٤٧): فيركمه، أي: يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى: ﴿ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا ﴾، أي: متراكما متراكبا: ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة. ا هـ

قوله: (للضرم) مصدر ضرِم ضرمًا وضرِمت النارُ وتضرَّمت، واضطرمت: اشتعلت والتهبت [(١)] . ا هـ

---

(١)["لسان العرب" مادة (ضرِم)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠١	واعْجَبْ لِعُدْوانِ قَوْم حاوَلُوا سَفَهًا	أنْ يَجْمَعُوهُ إلى الإسْلامِ فِي كَمَم

الشرح

ومن أعمال هؤلاء الملاحدة الفجرة الكفرة: أنهم حاولوا جمع علومهم الباطلة مع علوم إسلامية وينشرونها في كمم، أي: في موضع واحد وفي ثوب واحد والكم هو موضعُ مدخل اليد كما في "القاموس المحيط".

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٢	كالنّارِ في الماءِ أو طُهْرٍ عَلى حَدَثٍ	في وقتِهِ أوْ إخاءِ الذِّئْبِ والغَنَم

الشرح

فهؤلاء الملاحدة يحاولون أن يجمعوا بين الحق والباطل في ثوب واحد، كالذي يريد أن يجمع بين الماء والنار، أو الطهر والحدث في وقت واحد، وآن واحد وهل يمكن هذا؟

وقوله: (**أوْ إخاءِ الذِّئْبِ والغَنَمِ**) فحالهم كالذي يريد أن يؤاخي بين الذئب والغنم وهذا محال قال تعالى: ﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠]، هذا هو حاصل ما تروج إليه تلك المجلات من الدعوة على الكفر والزندقة والإلحاد ونشر الرذيلة وانحلال الأخلاق الحميدة، وجعل المرأة سلعة للوحوش البشرية، ونزع العفاف والقيم الدينية، والله فالمستعان.

فالله أسأل أن ينتقم ممن يسعى في هذه الأمور الباطلة البطَّالة، وأن يكفي المسلمين شره، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة: في تحصيلِ ثَمَرَاتِ العِلْمِ النافِعَةِ واجْتِناءِ قُطوفِهِ الدَّانِيَةِ اليانِعَة

لما أنهى الكلام على العلوم الباطلة كعلم الكلام والتنجيم والسحر والكهانة والتحذير من الفتن ختم النظم بخاتمة بين فيها ثمارَ العلم وقطوفَهُ الدانية.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٣	وَحَاصِلُ العِلْمِ ما أُمْلِي الصِّفَاتِ لَهُ	فَأَصْغِ سَمْعَكَ واسْتَنْصِتْ إلَى كَلِمِي

الشرح

بدأ هذه الخاتمة بالنصح للسامع أن يصغي سمعه وقلبه لهذه النصائح فمن أصغى سمعه وقلبه استفاد من النصائح قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٤	وَذَاكَ لَا حِفْظَكَ الفُتْيَا بِأَحْرُفِهَا	وَلَا بِتَسْوِيدِكَ الْأَوْرَاقَ بِالْحُمَمِ

الشرح

ليس العلمُ بمجرد حفظ الفُتيا وأن يقول الفتوى بحروفها وليس العلمُ بمجرد تسويد الأوراق بالحُمَم فليس العلمُ أن تأخذ ورقاً وقلماً وتكتب ما يقال فقط بل لابد من بناء متين وعمل بالعلم فهذا هو المقصد العظيم من طلب العلم الشرعي.

وقوله: (بالحُمَم) الحُمَم على وزن صُرد وهو الفحم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٥	وَلَا تَصَدُّر صَدْرَ الْجَمْع مُحْتَبِيًا	تُمْلِيهِ لَمْ تَفْقَهِ الْمُعْنِيَّ بالكَلِم

الشرح

وليس أيضاً مجرد العلم أن يكون الإنسان متصدراً في المجالس وفي رءوس المجالس فيجلس في رأس المجلس يملي عليهم ما عنده مُحتبيًا وهو جالسٌ جِلسة الاحتباء وهي جلسة معروفة عند الناس دون أن يفقه من هو المعني بالكلام وما هو مقصود الشرع من هذا العلم وقد قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه [1] .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٦	ولا العِمَامَةِ إذْ تُرخَى ذُؤابَتُها	تَصَنُّعًا وخِضاب الشيْبِ بالْكَتَمِ

الشرح

وليس العلمُ أن يضع الإنسانُ على رأسه عمامة جميلة ويقوم بتصليحها ويرخي لها ذاؤب من خلفه فيتصنع ويظهر أنه عالمٌ وكم من عمائم على رءوس أُناس ورءوسهم خالية من العلم وليسوا من أهل العلم بل ربما يكون من أهل البدع والضلال.

---

(١) [أخرجه البخاري برقم (١٢٧)].

وقوله: (**وخضاب الشيب بالكتم**) أي: وليس العلم بتغيير لون الشيب بالكتم وهو لون أسود ولا يجوز تغيير الشيب بالأسود لحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: أتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**غيروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد** [(١)] » .

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم** [(٢)] ».

وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد، كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة**» [(٣)] .

قال الحافظ [الفتح (٦/٤٩٩)]: والمراد به صبغ شيب اللحية والرأس ولا يعارضه ما ورد من النهي عن إزالة الشيب لأن الصبغ لا يقتضي الإزالة ثم إن المأذون فيه مقيد بغير السواد.ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٠٧	ولا بِقَوْلِكَ يعني دائبًا ونَعَمْ	كَلا ولا حَمْلَكَ الأسْفارَ كالْبُهُمِ

الشرح

وليس العلم أن تقول نعم أو لا ونحو ذلك ولا بحمل الأسفار دون فقهٍ لما فيها ودون علمٍ بما فيها والأسفارُ جمع سِفْر وهو الكتاب الكبير وسُميَ بذلك لأنه

---

(١) [رواه مسلم برقم (٢١٠٢)].

(٢)[رواه البخاري برقم (٣٤٦٢) ومسلم برقم (٢١٠٣)].

(٣) صحيح. رواه أبو داود برقم (٤٢١٢) والنسائي برقم(٥٠٧٥) وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم (٨١٥٣) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٦٣٥).

يُسفرُ عن معاني إذا قرئ ما فيه وقد شبه الله من كان هذا حاله بالحمار لأن الحمار يحمل الكتب الكبيرة على ظهره ولا يدري ما هي قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

قال القرطبي في "تفسيره" عند هذه الآية: وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء. ا هـ

قلتُ: فليس العلمُ باقتناء الكتب والإكثار منها بل قد تكون صارفاً عن تحصيل العلم والإكثار منه وكم من إنسان معه كتبٌ قليلة وإذا احتاج إلى كتاب اشتراه وتجده قد طالعها وكرَّس جهوده عليها فاستفاد منها وليس معنى كلامي التزهيد من الكتب بل كتب العلم هي سلاح طالب العلم وإنما الخطأ أن يحرص طالبُ العلم على اقتناء الكتب دون عناية بالعلم والمطالعة فيها فحالهُ كمن يجمع الذهب والفضة ويكنزها قال الخطيب البغدادي: وهل جامعُ كتبِ العلمِ إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهومُ بها إلا كالحريص الجشع عليهما؟ وهل المغرمُ بحبها إلا ككانزهما [(١)] ؟.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٨	ولا بِحَمْـــلِ شـــهاداتٍ مُبَهْرَجَـــةٍ	بِزُخْـرُفِ القَـوْلِ مِـن نَثْـرٍ ومُنْـتَظِمِ

الشرح

وليس العلمُ أيضاً بمجرد حمل الشهادات مجملة ومزخرفة، فيأتي ويتبجح أنه عنده شهادة كذا وكذا، فماذا تنفع الشهادة إذا لم يكن هناك خشيةٌ لله؟ فإن المقصد

---

(١) [اقتضاء العلم العمل ص (١٦)].

الأعظم من طلب العلم هو خشية الله تعالى في السر والعلن، فإذا كانت همة طالب العلم أن يتحصل على شهادة فقد يُحرم من العلم بسوء النية، والله المستعان .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٠٩	بـــلْ خَشْـــيَة اللهِ في سِرٍّ وفِي عَلَـــنِ	فاعْلَمْ هيَ العِلْمُ كلُّ العِلْمِ فالْتَزِمِ

الشرح

بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العلم الحقيقي هو خشية الله تعالى في السر والعلن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:٢٨]، فالعلم كل العلم هو خشية الله والعلم الذي لا يورث صاحبه خشية الله ليس بعلم نافع وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللّٰهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع...**» **الحديث** (١) .

وجاء عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**سلوا الله علما نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع**» (٢) .

فكلُّ علم لا يورث خشية الله فإنه علمٌ لا ينفع.

---

(١) **صحيح**. رواه مسلم برقم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأخرجه أحمد برقم (١٤٠٢٣) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسنده صحيح وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع في صحيح وضعيف سنن النسائي والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم(٨٨) وأخرجه أحمد برقم (٨٤٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو حديث صحيح وأخرجه النسائي برقم (٥٤٤٢) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم(٧٨٥).

(٢) **حسن**. أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٤٣) وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٥١١).

قال ابن رجب رحمه الله: وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم لا ينفع [١] . ا هـ

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ليس العلمُ بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية [٢] .ا هـ

وقال سفيان الثوري رحمه الله: ليس طلب العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم خشية لله عز وجل [٣] .ا هـ

قال ابن رجب رحمه الله: فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالى، وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارحُ كلُّها تبعاً لخشوعه [٤] .ا هـ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢١٠	فَالْتَعْـــرِف اللهَ ولْتَـــذْكُرْ تَصَـــرُّفَهُ	ومَـا عَـلى عِلْمِـهِ قـد خَـطَّ بـالقَلَمِ

الشرح

ومعرفة الله تكون بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله فهذا يقوي الإيمان ويُثبت الجنان وكم من آيات فيها الدعوة إلى العلم بالله وبأسمائه وصفائه قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]،

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ١٧).

(٢) حلية الأولياء (١/ ١٣١).

(٣) [حلية الأولياء (٦/ ٣٧٠)].

(٤) مجموع رسائل ابن رجب (١/ ١٦).

وقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقوله:(ولتذكر تصرفه) أي: تذكر أن الله سبحانه وتعالى هو المصرف لهذا الكون.

وقوله: (وما على علمه قد خط بالقلم) أي: أن علم الله المحيط بكل شيء الذي وسع كلَّ شيء كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، قد علم كلَّ شيء أزلاً وقد كتب كلَّ شيء قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب فقال: ما أكتب قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد**»[(١)]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**جفَّ القلم بما أنت لاق**»[(٢)]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**جفَّ القلم بما هو كائن**»[(٣)]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف**»[(٤)].

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي برقم (٢١٥٥) عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠٧٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح. أخرجه أحمد برقم (٦٨٥٤) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٠٧٦) والعلامة الوادعي في برقم الصحيح المسند برقم (٧٨٦).

(٤) صحيح. أخرجه الترمذي برقم (٢٥١٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٦٨٦).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١١	وحَقَّـهُ اعْـرِفْ وقُـمْ حَقًّـا بِمُوجِبِـهِ	ومَنْهَجَ الْحَقِّ فَاسْلُكْ عَنْهُ غَيْرَ عَمِي

الشرح

أي: اعرف حق الله عليك وهو أن تعبده لا تشرك به شيئاً كما جاء في حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، قال: كنت ردف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار، يقال له: عفير، قال: فقال: «**يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟**»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله عز وجل أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا**»، قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس، قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**» [1].

وقوله: (**وقم حقًا بموجبه**) أي: قم بما يستوجبه من معرفتك بالله ودينه الحق الذي جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتمسك به، واسلك أيضاً منهج الحق وهو ما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسلك نهجه والزم طريقته، واتبع سنته ولا تكن أعمى عن الحق والهدى الذي جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

---

(١) [رواه البخاري برقم (٢٨٥٦) ومسلم برقم (٣٠)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١٢	أَشْقَى وأَسْعَدَ مُخْتَارًا أَضَلَّ هَدَى	أَدْنَى وأَبْعَدَ عَدْلا مِنْهُ فِي القِسَمِ

الشرح

هذه أفعال لله تعالى، فآمن بها، فإن هذا من معرفتك بربك سبحانه وتعالى.

وقوله: (أَشْقَى وأَسْعَدَ) الشقاوة والسعادة بيد الله وقد جاء عن علي، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**»، قال فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «**من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة**»، فقال: «**اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥-١٠] (١).

---

(١) [رواه البخاري برقم (٤٩٤٥) ومسلم برقم (٢٦٤٧)] وهذا لفظه.

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد** [(١)] » الحديث. ، **وقال ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**الشقي من شَقِيَ في بَطن أمه والسعيدُ من وُعِظَ بغيره** [(٢)] » .

فمن أراد السعادة فعليه بكتاب وسنة رسوله ففيهما السعادة وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : «**ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة**»، ثم تلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] [(٣)] .

وهكذا الناس يوم القيامة على قسمين: شقي وسعيد قال سبحانه: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥].

وقوله: (أضل هدى) أي: أن الإضلال والهداية بيد الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد:٢٧]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٣].

---

(١) [رواه البخاري برقم (٣٢٠٨) ومسلم برقم (٢٦٤٣)].

(٢) رواه مسلم برقم: (٢٦٤٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٤٨١) وابن جرير في تفسيره عند الآية وسنده صحيح.

وقوله: (وأبعد عدلاً منه في القسم)، أي: وأبعد الله بعض الخلق وطردهم من رحمته عدلاً منه، فهو يثيب المحسن على إحسانه فضلاً منه، ويعاقب المسيء على إساءته بعدله قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقد جمع معاني هذه البيت الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا منت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تُعن
فمنه شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن[1]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١٣	أَوْحَى وأَرْسَلَ وصَّى آمِرا ونَهَى	أَحَلَّ حَرَّمَ شَرْعًا كَامِلَ الْحِكَمِ

الشرح

هو سبحانه، وتعالى الذي أنزل الوحي على رسله وأنبيائه وأرسل رسلاً في كل أمة من أجل توصية الناس بأوامر، فيعملون بها ونواهي فيجتنبونها، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [النساء:٦٤]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]

وقوله: (أَحَلَّ حَرَّمَ) التحليل والتحريم بيد الله تعالى، فهو يحل وهو يحرم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ

---

(١) انتهى شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٧٧٦) والأسماء والصفات للبيهقي (١/٤٥٠).

تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس:٥٩]، ونهى سبحانه عباده عن سلوك سبيل الكافرين والمشركين الذين حللوا وحرموا من قبل أنفسهم كذبا وافتراء على الله فقال سبحانه: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

وقوله: (شرعًا كامل الحكم)، فشرع لهم هذا الدين وهو كاملٌ شاملٌ لكل شيء خالدٌ إلى قيام الساعة قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى مبيناً أن هذا الدين كاملٌ: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨]، فامتاز هذا الدين على غيره من الأديان بكماله وشموله وخلوده.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١٤	يُحِبُّ الإِحْسَانَ والعِصْيانَ يَكْرَهُهُ	والْبِرَّ يَرْضاهُ مع سُخْطٍ لِحُرْمِهِمِ

الشرح

الإحسان: هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما عرفه بذلك نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (..قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» [(١)]).

---

(١) [رواه البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩)عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواه مسلم برقم (٨) عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا].

فالله سبحانه وتعالى يحب المحسنين ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وهو معهم معية خاصة بالنصرة والتأييد والحفظ والرعاية: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وقوله: (والعِصْيانَ يَكْرَهُهُ) **العصيان** جميع المعاصي فهو سبحانه يكره المعاصي بشتى أنواعها قال تعالى بعد أن ذكر جملاً من المعاصي: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٨]، وقال: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

وقوله: (والْبِرَّ يَرْضاهُ) البر هو اسمٌ جامع للخير [(١)] .ا هـ

وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى بالتعاون على البر: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢]، والبر من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة، فإن البرَّ يقود صاحبه إلى جنة الله ورضوانه، قال النبي ﷺ: «وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا [(٢)] ».

وقوله: (معْ سُخْطٍ لِجُرْمِهِم) الْجُرْمُ مصدر جَرُمَ يجرُمُ جُرْمًا وجرامًا: التعدي والإجرام هو اقتراف السيئة، والمقصود أن الله يسخط على من يقترف الذنوب والمعاصي فمن كان مجرمًا، فإن الله ينتقم منه على قدر إجرامه قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

---

(١) [انظر تفسير القرطبي (٢/٢٣٨)].

(٢) [رواه البخاري برقم (٦٠٩٤) ومسلم برقم (٢٦٠٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١٥	بِمُقْتَضَى دِينِ فِي الدّارَيْنِ مُطَّرِدِ	لا ظُلْمَ يَخْشَى ولا خَيْرٌ بِمُنْهَضِمِ

الشرح

أي: إذا قام بمقتضى ما يحبه الله ويرضاه، واجتنب ما يغضب الله ويسخطه فلا يخاف ظلماً ولا هضماً في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤].

قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٢٨٠): أي: لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.ا هـ

وقال الماوردي في تفسيره (٣/ ٤٢٨): والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كلِّه، والهضم المنع من بعضه، والهضم ظلمٌ، وإن افترقا من وجه.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢١٦	فاعْمَلْ عَلى وَجَلٍ واذْأَبْ إلَى أجَلٍ	واعْزِلْ عن اللهِ سُوءَ الظنِّ والتُّهَمِ

الشرح

رحمة الله على الناظم ما أجملها من وصايا ونصائح ثمينة، حيث وصانا بوصايا:

الوصية الأولى: أن يعمل الإنسان العمل على خوف ألا يُتقبلَ منه فليس القصدُ أن نعمل ولكن القصد أن نعمل، وأن نخلص فيها وأن نكون خائفين من عدم قبولها كما سلفنا الصالح يعملون الأعمال الصالحة، ويخافون من عدم قبولها جاء عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١] (١) ».

الوصية الثانية: الاستمرار في العمل الصالح والمداومة عليه إلى الموت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

قال ابن كثير في "تفسيره" (٢/ ٧٥): أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا بالله من خلاف ذلك.ا هـ

وقال ابن رجب رحمه الله: عمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله، قال الحسن البصري: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم قرأ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] (٢) .ا هـ

وقوله: (واعْزِلْ عن اللهِ سُوءَ الظنِّ والتُّهَمِ) أي: لا تظن بالله إلا خيراً واحذر أن تظن به ظن سوء قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا عند ظنِ عبدي وأنا معه إذا ذكرني (٣) ».

---

(١) [رواه الترمذي برقم (٣١٧٥)، وهو حديث حسن].

(٢) [لطائف المعارف (٢٢٣)].

(٣) [رواه البخاري برقم (٧٤٠٥) ومسلم برقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

وجاء عن واثلة بن الأسقع، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله عز وجل: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**» [(١)].

وروى ابن حبان كما في "موارد الظمآن" برقم (٧١٦)، عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قال الله جل وعلا: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن بي خيرا له وإن ظن شرًا فله**» [(٢)].

وقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على تعليم الصحابة هذا الأمر، فقد وصاهم قبل موته بثلاثة أيام بحسن الظن بالله، جاء في مسلم برقم: (٢٨٧٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موته بثلاثة أيام، يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسنُ الظن بالله عز وجل**»، وما أحسن قيل في ذلك:

فلا تظنن بربك ظن سوء ... فإن الله أولى بالجميل

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢١٧	لِلشَّــرْعِ فانْقَــدْ وسَــلِّمْ لِلقَضَــاءِ ولَا	تُخَاصِــمَنَّ بِــهِ كالمُلْحِــدِ الخَصِــمِ

الشرح

أي: كن منقاداً لشرع الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شيء وآخذًا لهذا الدين من جميع جوانبه، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾

---

(١) رواه أحمد برقم (١٦٠١٦) وسنده صحيح.

(٢) وسنده صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٦٦٣).

[البقرة:٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤].

وقوله: (وسَلِّمْ لِلقَضَاءِ ولَا ... تُخَاصِمَنَّ بِه كالمُلْحِدِ الخَصِمِ) أي: كن مُسَلِّماً لقضاء الله وقدره، واحذر من الخصومة وخاصة في دين الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤]، وقال النبي ﷺ: «من أعان على خصومة بظلم، أو يُعين على ظلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع [(١)]».

وقال النبي ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨] [(٢)].

وجاء عن الزبير رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١] قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله مع خصومتنا في الدنيا،

---

(١) [رواه ابن ماجه برقم: (٢٣٢٠) والحاكم برقم (٧٠٥١)، عن ابن عمر رضي الله عنهما وهو حديث حسن في الصحيحة برقم (١٠٢١)].

(٢) رواه الترمذي برقم: (٣٢٥٣)، وابن ماجه برقم: (٤٨)، وأحمد برقم: (٢٢١٦٤)، والحاكم برقم: (٣٦٧٤)، والبيهقي في الشعب برقم: (٨٠٨٠) عن أبي أمامة رضي الله عنه وهو حديث حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، والعلامة الوادعي في الصحيح برقم: (٤٧٩).

قال: نعم، ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قال الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أي رسول الله! أي نعيم نُسْأَلُ عنه، وإنما يعني هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إن ذلك سيكون [(١)]».

وكم حذر سلفنا الصالح من الخصومة في الدين، قال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: الخصومة في الدين بدعة. اهـ

فالحذر الحذر من الخصومة والجدال في دين الله، وأن نكون كالملحد الذي يجادل ويخاصم في الدين، فإن الخيرَ كلَّ الخير باتباع من سلف وإن الشر كلَّ الشرِ باتباع من خلف.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢١٨	وبالْمَقَادِيرِ كُنْ عَبْدًا لِمَالِكِهِ	وعابِدًا مُخْلِصًا فِي شَرْعِهِ القَيِّمِ

الشرح

مقادير العباد بيد الله، فالأمور كلها بيد الله هو الذي يخلق ما يشاء بقدره تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، فما من مخلوق يخلقه الله إلا بقدر قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، فأمور العباد بيد الله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، الأمر لله من قبل ومن بعد، ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم:٤]، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا

---

(١) رواه أحمد برقم: (١٤٠٥)، وسنده حسن وقد حسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٣٣٦).

﴿رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣] وجاء عن ابن الديلمي، قال: أتيت أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقلت: له وقع في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي، قال: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار**»، قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فقال مثل ذلك**، قال: ثم أتيت حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، **فقال مثل ذلك**، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **فحدثني عن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مثل ذلك** (١) .

فكن عبداً لله راضٍ بما قدر الله، وفي جانب العبادة كن عابداً مخلصًا لله؛ لأن العبادة لا تقبل إلا بالإخلاص والمتابعة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢١٩	إِيَّاهُ فاعْبُدْ وإِيَّاهُ اسْتَعِنْ فَبِذَا	تَصِلْ إليْهِ وإلا حُرْتَ فِي الظُّلَمِ

الشرح

يشيرُ إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فجمع بين العبادة والاستعانة؛ لأن العبادة هي الغاية من خلق الجن والإنس، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، قال شيخ الإسلام: (والاستعانة طلب العون،

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٦٩٩)، وهو حديث صحيح.

والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور)[١]، فالاستعانة وسيلة للقيام بالعبادة فإذا حقق الإنسان هذين الأمرين: يصل إلى ربه وإن لم يحقق هذين الأمرين: عاش في بحر الظلم لنفسه ولغيره.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصّبر على المقدورات كلّها في الدّنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلّا الله عز وجل.

فمن حقّق الاستعانة عليه في ذلك كلّه أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولا [٢] .ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٠	وخُذْ بالَاسْبابِ واسْتَوْهِبْ مُسَبِّبَها	وثِقْ بِهِ دُونَها تُفْلِحْ ولَمْ تُضَمِ

الشرح

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة: أن الإنسان يفعل بالأسباب الشرعية مع التوكل الله، فلا يعتمد الإنسان على السبب ويترك التوكل ولا يعتمد على التوكل ويترك العمل بالسبب، فعلى العبد أن يثق بالله دون الأسباب، فالأسباب أسباب كاسمها فقط، قال ابن أبي العز: وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا

---

(١) كما في مجموع الفتاوى (١/ ١٠٣).

(٢) تفسير ابن رجب (١/ ٧٣).

فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عرف في موضعه.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل المتوكلين، يلبس لأمة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب [(١)] . اهـ

وقال شيخ الإسلام: وأما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله. اهـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "المدارج" (٢/ ١١٧): وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد. اهـ

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة:١٩٧]

ومن الأخطاء الشائعة في أوساط الناس: **الدعوة إلى الثقة بالنفس**، وأن الإنسان يكون واثقاً بنفسه، وهذا من الأمور المنكرة المحرمة التي لا تجوز، **ومن العجب**: أن تجد في أوساط المسلمين من يدعو الناس إلى هذا الأمر والله المستعان، **فالثقة** لا تكون إلا بالله فقد عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) [شرح الطحاوية ص (٢٤٥)].

قال: «دعوات المكروب: اللّٰهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت [١] ».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المدارج" (٢/ ١٤٣): الثقة خلاصة التوكل ولبه. اهـ

وسئل الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قول من قال: تجب الثقة بالنفس؟ فأجاب: لا تجب ولا تجوز الثقة بالنفس. وفي الحديث: ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. من يقوله؟! أخشى أن هذه غلطة تكون منك لا أظن أن إنساناً له عقل يقول ذلك [٢] . اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢١	بالشَّرْعِ زِنْ كُلَّ أمْرٍ ما هَمَمْتَ بِهِ	فإنْ بَدَا صالِحًا أقْدِمْ ولا تَجِمِ

الشرح

هذا أمر لو مشينا عليه في حياتنا لفُزنا في الدنيا والآخرة، فلا نعملُ من عمل إلا ووزناه بالشرع، فإن كان صالحاً، فعلناه وأقدمنا عليه وإلا تركناه، وقد قال بعض السلف: إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بدليل فافعل.

وقوله: (ولا تَجِم) من وجم يجم وجماً ووجوماً، والوجوم: السكوت على غيظ، والواجم: الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام [٣] . اهـ

والمعنى: أقدم على العمل ولا تسكت.

---

(١) رواه "سنن أبي داود" وغيره، وهو حديث حسن.

(٢) [مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ١٧٠)].

(٣) [انظر لسان العرب مادة (وجم)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٢	أَخْلِصْهُ واصْدُقْ أَصِبْ واهْضِمْ فَذِي شُرِطَتْ	فِي صـالِحِ السَّـعْيِ أَوْ فِي طَيِّـبِ الكَلِـمِ
٢٢٣	أَخْلِصْـهُ للهِ واصْـدُقْ عازِمًـا وأَصِـبْ	صِرَاطَهُ واهْضِمَنَّ النَّفْسَ تَنْهَضِمِ

الشرح

ثم بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأن الإنسان إذا أقدم على عمل صالح يجب عليه أن يُخلصه لله، ثم بيَّن ما هي شروط قبول العمل، وهي: **الإخلاص لله، والإصابة**، أي: المتابعة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فلو فعل العبد العمل بإخلاص وصدق ومتابعة مع هضمه لنفسه، فهذا هو سبيل النجاة.

والإخلاص: في اللغة: ترك الريا في الطاعات.

وفي الاصطلاح: أن لا تطلب لعملك شاهداً غير الله [1] . ا هـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً ينقله ولا ينفعه. ا هـ.

والصدق: وهو مطابقة الحكم للواقع.

---

(١) [الفوائد (٤٩)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: وأخبر سبحانه أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:١١٩] (١) . اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٤	لا تُعْجَبَنَّ بِهِ يُحْبَطُ ولا تَرَهُ	في جانبِ الذنْبِ والتقْصِيرِ والنِّعَمِ

الشرح

وهذا تحذير للعبد من العجب فإنه يحبط الأعمال ويوصل إلى غضبه وسخطه، فإبليس لما أعجب بنفسه سخط الله عليه ولعنه، **وله آفات كثيرة:**

منها: أنه يؤدي إلى الكبر وأيضًا يؤدي إلى نسيان الذنوب وإهمالها وعدم التوبة منها.

ومنها: أنه يؤدي إلى التقصير في الطاعات والتقليل منها.

ومنها: عدم قبوله للحق وغيرها كثير.

---

(١) [مدارج السالكين (٢/٢٥٨)].

قال ابن القيم رحمه الله: فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه [١] . اهـ

ولو تأملنا في أحوال الصحابة لوجدناهم في غاية من العمل مع الخوف من عدم قبولها وفي بعدٍ عن العجب، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله**» **قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل** [٢] **»** .

وقــد قال بعض السلف: كمن عملٍ صغيرٍ كبَّرَتْهُ النِّيَّةُ وكمن عملٍ كبيرٍ صغَّرَتهُ النِّيَّة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٢٥	وحيـثُ كـانَ مِـن النّهْـي اجْتَنِبْـهُ وإنْ	زَلَلْتَ تُبْ منهُ واسْتَغْفِرْ معَ النَّدَمِ

الشرح

أي: إذا أردت أن تعمل عملاً وأن تقوم به وهو مما نهى الله عنه فاجتنبه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى:٣٧].

---

(١) [الوابل الصيب (٦-٧)].

(٢) رواه البخاري برقم (٦٤٦٣) ومسلم برقم (٢٨١٦) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقوله: (**وإنْ زَلَلْتَ**) أي: ضللت، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٠٩].

وقوله: (**تبْ منه**) أي: تب من الذنب، **والتوبة**: هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب [(١)] . ا هـ

وقال (١/ ١١٥): وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، **فالاستغفار**: طلب وقاية شر ما مضى، **والتوبة**: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. ا هـ

وشروط التوبة خمسة:

١ـ **الإخلاص لله** بأن يقصد بالتوبة وجه الله وحده.

٢ـ **الندم** على فعل المعصية قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**» [(٢)]،

٣ـ **الإقلاع** عن المعصية.

٤ـ **العزم** ألا يعود إليها.

٥ـ **ردُّ المظالم والتحللُ** منها إن كانت في حق الآدمي.

٦ـ **أن تكون التوبةُ في زمنٍ تُقبلُ فيه التوبة**، وأما الزمان الذي لا تقبل فيه التوبة على نوعين:

١ـ خاص بالإنسان كلٌ بحسبه، وهو عند الموت قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٨].

---

(١) [التعريفات].

(٢) رواه أحمد برقم (٣٥٦٨)، عن ابن مسعود رضي الله عنه ورواه ابن حبان برقم (٦١٢) عن أنس رضي الله عنه وهو حديث صحيح.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر [١]».

٢ـ عام وهو طلوع الشمس من مغربها قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل [٢]».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٢٦	وَأَوْقِفِ النفسَ عندَ الأمرِ هلْ فَعَلَتْ	والنَّهْيِ هلْ نَزَعَتْ عن موجِبِ النِّقَمِ

الشرح

أي: حاسب نفسك وقف معها، واسألها وقل لها: هل فعلتِ ما أمركِ اللهُ به، وهل تركتِ ما نهاك اللهُ ورسوله عنه التي توجب النقم؛ لأن المعاصي من أسباب النقم.

قال الماوردي: عليه أن يتصفح في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموما استدركه إن أمكن وانتهى عن مثله في المستقبل [٣]. ا هـ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٥٣٧) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث حسن.

(٢) [رواه البخاري برقم (٤٦٣٥) ومسلم برقم (١٥٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) [أدب الدنيا والدين (٣٥٦)].

وهذا هو حال العبد الذي يريد لنفسه الخير أن يحاسب نفسه بين الحين والآخر؛ لأنه إذا حاسب نفسه حمله ذلك على التوبة مما صدر منه، والرجوع إلى الله تعالى، وقد أمرنا سبحانه وتعالى بمحاسبة أنفسنا، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨]،

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم. اهـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومحاسبة النفس **نوعان**: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو **ثلاثة أنواع**:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي. وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور قد تقدمت، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به [(١)] .ا هـ[

ومن أعظم الجاهد أن يجاهد العبد نفسه في الله عز وجل وأن يبتعد عن الذنوب وأن يتوب إلى ربه مما حصل منه وأن يُقبل على الأعمال الصالحة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل** [(٢)] ».

وقد كان سلفنا الصالح يُحاسبون أنفسهم أشد المحاسبة فرفعهم الله في الدنيا والآخرة، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهونُ عليكم في الحساب غداً، أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية) [(٣)] . ا هـ

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان مع تصرف(١/ ٨١- ٨٢)].

(٢) رواه أحمد برقم (٢٣٩٥٨)، وسنده صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (٥٤٩) والعلامة الوادعي في "الصحيح المسند" برقم: (١٠٦٥).

(٣) [حلية الأولياء (١/ ٥٢)، وسنده حسن].

وأخرج أبو داود في الزهد (٥٣): عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوماً وخرجت معه حتى دخلت حائطاً، فسمعته وهو يقول بيني وبينه جدارٌ، وهو في جوف الحائط: والله لتتقِين الله أو ليُعذبنَّك [(١)] . ا هـ

وكان بكر بن عبد الله المزني إذا رأى شيخاً، قال: هذا خير مني عبد الله قبلي، وإذا رأى شابًا، قال: هذا خير مني ارتكبتُ من الذنوب أكثر مما ارتكب [(٢)] . ا هـ

وقال يحيى بن كثير: ما أكرم العباد أنفسهم بمثل طاعة الله ولا أهان العبادُ أنفسهم بمثل معصية الله عز وجل [(٣)] . ا هـ

وقال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريحٌ، ما قدر أحد أن يجلس إليَّ [(٤)] . ا هـ

وقال يونس بن عبيد: دخلنا على محمد بن واسع نعوده **فقال:** وما يُغني ما يقول الناسُ إذا أُخِذ بيدي ورجلي فأُلقيت في النار [(٥)] . ا هـ

وقال بن مالك بن دينار: رحم اللهُ عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ثم زمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب، فكان لها قائداً [(٦)] . ا هـ

---

(١) وسنده صحيح.

(٢) حلية الأولياء (٢/٢٢)، وسنده حسن.

(٣) [الشعب برقم (٦٨٥٣)].

(٤) [تاريخ دمشق (٥٦/١٥٨)].

(٥) [تاريخ دمشق (٥٦/١٧٢)].

(٦) [تاريخ دمشق: (٥٦/٤٢٠)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فحقٌ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفُل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاته وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية [(١)] . ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٧	فـإنْ زَكَـتْ فاحْمَـدِ المَـوْلَى مُطَهِّرَهـا	ونِعْمَـةَ اللهِ بالشُّـكْرانِ فاسْـتَدِمِ

الشرح

التزكية هي: تطهير القلب وتنمية الإيمان، وتزكية النفس تكون بطاعة الله، والابتعاد عن معصيته وقد أقسم سبحانه وتعالى بأحد عشر قسماً على أنَّ من زكى نفسه فهو من المفلحين، قال تعالى: ﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾ [الشمس:١-٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره": أي: بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. ا هـ

فمن زكى بطاعة الله فقد أفلح والفلاحُ هو الفوزُ بالمطلوب وهي: الجنة والنجاةُ من المرهوب وهي: النار، وكلمةُ الفلاح تجمع خيري الدنيا والآخرة ولا يوجد كلمةٌ أبلغ منها تجمع خيري الدنيا والآخرة وتزكية النفوس لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى

---

(١) [إغاثة اللهفان (١/ ٨٠)].

فهي فضلٌ ورحمةٌ من الله، قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء:٤٩]، وقال: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٢١].

ولْيحذر المسلم أن يعمل العمل ويزكي نفسه ويفرح بمدحها، فإن هذا هو الخذلان، قال تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢]، وكانت مهمة الرسل دعوة الناس إلى تزكية النفوس، قال تعالى مخاطبًا موسى أن يقول لفرعون: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ [النازعات:١٨]، وقال تعالى عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، ولا يتم تزكية النفس **إلا بأمرين**: علم نافع، وعمل صالح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ سائرٌ إلى مقصد ولا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا **بقوتين**:

أما الأولى: فقوة علمية.

وأما الثانية: فقوة عملية. اهـ

وعلى المسلم أن يبذل الأسباب التي تكون سبباً في تزكية نفسه بعد توفيق الله لها ومنها: الدعاء فإنه من أسباب التزكية وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الله تعالى أن يزكي نفسه جاء عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللَّهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل،**

والهرم، وعذاب، القبر اللّهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها (١) **»**.

وتزكية النفس ليس بالأمر السهل يحتاج إلى دعاء الله ومجاهدة حتى تستقيم النفس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد. اهـ

ومن أسباب تزكية النفس: الذكر، والصلاة، قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

ومن أسباب تزكية النفس: الإيمان بالله والعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى** ﴾ [طه:٧٥].

ومن أسباب تزكية النفس: مراقبة الله، جاء عن عبد الله بن معاوية الغاضري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان: من عبدَ الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم؛ فإن الله**

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٢٢).

عز وجل لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرها، وزكى نفسه»، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان [1] ».

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٨	وإنْ عَصَتْ فاعْصِها واعْلَمْ عَدَاوَتَها	وحَذِّرَنْها وُرُودَ المَوْرِدَ الوَخِمِ

الشرح

وصف الله النفس في القرآن **بثلاثة أوصاف**: النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، وهي أوصافٌ لذات نفس واحدة وليس كما يفهم بعض الناس، أنها ثلاثةُ أنفس قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٩/ ٢٩٤): ويقال النفوس **ثلاثة أنواع**: وهي:

١ - **النفس الأمارة بالسوء**: التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

٢ - **والنفس اللوامة وهي**: التي تذنب وتتوب فعنها خير وشر لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ولأنها تتلوم أي: تتردد بين الخير والشر.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (٥٥٥) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة تحت حديث برقم (١٠٤٦).

٣ - **والنفس المطمئنة وهي:** التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقا وعادة وملكة. فهذه صفات وأحوال لذات واحدة وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه. اهـ

فإن أبدت نفسك إلا العصيان فاعصها ولا تطعها في معصية الخالق وخوِّفها من عذاب الله وعقابه الأليم المهين ومن ناره الجحيم. حذرْها من سخط الله وغضبه ذكرْها بما في القبر من ضمة القبر وعذابه، ذكرْها أن هذه الدنيا متاع زائل، وأن النفس ستحتاج إلى الحسنة الواحدة، فإن هذه النفس تأمر صحابها بالسوء والشر والمعاصي قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]، ولخبث هذه النفس التي تأمر صحابها بالشر كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله من شرها كما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة الحاجة: ونعوذ بالله من شرور أنفسنا[(١)] وكان يعلم الصحابة أن يستعيذوا بالله من شرها **جاء عن عمران بن الحصين** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن حصيناً أتى رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقال: يا محمد لعبدُ المطلب كان خيراً لقومه منك؛ كان**

---

(١) حديث صحيح. أخرجه الترمذي برقم (١١٠٥) وابن ماجه برقم (١٨٩٢) وهذا سندٌ صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٨٥٤).

يطعمهم الكبد والسنام، وأنت تنحرهم. فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله أن يقول فقال له: ما تأمرني أن أقول؟ قال: قل: «اللَّهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري»، (١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١] (٢). اهـ

فمن جاهد نفسه على طاعة الله واجتناب معصيته فهو من المجاهدين في سبيل الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل (٣)».

وقال القحطاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

إياك نفسك والعدو وكيدهُ فكلاهما لأذاك مُبتديان.

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد برقم (١٩٩٩٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٩٩٣) وابن حبان برقم (٨٩٩) والطبراني في الكبير (٥٩٩) والحاكم برقم (١٨٨٠)، وسنده صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في التعليقات الحسان برقم (٨٩٦) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٣١٠).

(٢) [مدارج السالكين (١/ ٢٣٥- ٢٣٦)].

(٣) رواه أحمد برقم (٢٣٩٥٨) وسنده صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (٥٤٩) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (١٠٦٥).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٢٩	وانظُرْ مَحازِي المُسِيئينَ التي أُخِذُوا بِها وحاذِرْ ذُنوبًا مِن عِقابِهِمِ

الشرح

أي: تأمل في العواقب المخزية للذين أساءوا وعصوا ربهم وكيف كانت ناهيتُهم المؤلمة فسنة الله في هذا الكون أنه يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فالحذر الحذر من الذنوب، فإنها سبب الهلكة في الدنيا والآخرة، فكل شر وبلاء وفتنة في الدنيا والآخرة من آثار الذنوب والمعاصي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي [(١)] .اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٣٠	والْزَمْ صِفاتِ أولي التّقوَى الذينَ بِها	عَلَيْهِم اللهُ أثْنَى واقْتَدِهْ بِهِمِ

الشرح

أي: حافظ على أن تتصف بصفات أصحاب التقوى التي ذكرها الله في كتابه وذكرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته، فإن الله قد أثنى عليهم وأمر بالاقتداء بهم، كما قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ

---

(١) [انتهى، من الجواب الكافي (٤٢-٤٤)].

﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]، قال بكر بن عبد الله لطلق بن حبيب: صف لنا التقوى شيئًا يسيرًا نحفظه، فقال: اعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، والتقوى ترك المعاصي على نور من الله مخافة عقاب الله عز وجل [(١)] .اهـ

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل. اهـ

وقال شيخ الإسلام: هي العمل بالمأمور وترك المحذور [(٢)] . اهـ

قلتُ: ولا تنافي بين هذه التعريفات وحاصلها أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وما أجمل تلك الأبيات لابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التُقى

واعمل كماش فوق أرض ... الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٣١ واقْنُتْ وبينَ الرَّجَا والْخَوْفِ قُمْ أَبَدًا ... تَخْشَى الذنُوبَ وتَرْجُو عَفْوَ ذَي الكَرَمِ

الشرح

القنوت من معانيه: المداومة على الطاعة، ويأتي على معانٍ كثيرة، وقد نظمها الحافظ العراقي:

لفظ القنوت اعدد معانيه تجد ... مزيداً على عشر معاني مرضية

---

(١) [حلية الأولياء (٣/ ٦٤)].

(٢) (٢٢/ ١٣٥).

دعـاءٌ خشوعٌ والعبادةُ طاعـةٌ إقـامتُهـا إقـــرارهُ بالـعبـوديـة

سكوتٌ صلاةٌ والقيامُ وطولُه كذاك دوام الطاعة الرابح القنية

فيُداوم العبد على طاعة الله ويعبد ربَّه بين الخوف والرجاء، فإذا فعل الطاعة رجا ما عند الله من الرحمة، وإذا أراد أن يفعل المعصية خاف من ربه فحمله ذلك الخوف على ترك المعصية، قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [الإسراء:٥٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات. ا هـ

فلا يجوز للمؤمن أن يعتمد على الرجاء فقط، حتى يأمن من مكر الله ولا على الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله تعالى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٣٢ فالخوفُ ما أوْرَثَ التقوَى وحَثَّ عَلى مَرْضاةِ رَبِّي وهَجْرِ الإِثْمِ والأَثَمِ

الشرح

هذا هو الخوف المحمود وهو المطلوب من كل عبد الذي يورث تقوى الله وخشيته، ويحث على مرضاته ويجعل العبد يبتعد عن الذنوب والمعاصي، وعن مخالطة أهلها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط [(١)] . [ا هـ

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقدر الواجب من الخوف، ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثاً للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلاً محموداً، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضاً أو موتاً أو هماً لازماً بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل، لم يكن محموداً [(٢)] . ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٣٣	كَذا الرَّجَا ما عَلى هذا يحِثُّ لِتَصْـ	ـدِيقٍ بِمَوْعودِ رَبِّي بالْجَزَا العَظِمِ

الشرح

أي: وكذلك الرجاء المحمود الذي يحث على تقوى الله وابتغاء مرضاته والبعد عن معصيته والرجاء قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو النظر إلى سعة رحمة الله **وقال أبو علي الروذباري:** الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى

---

(١) "المدارج" (١/ ٥١٠- ٥١١)].

(٢) [التخويف من النار **(٢٨)**].

الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت [١] .

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج (٢/ ٣٦): الرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير. اهـ

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه.

ورجل أذنب ذنوبا ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب [٢] . اهـ

قلتُ: فالعبد المسلم يعيش بين هذين الجناحين لا يحيد عنهما يميناً ولا شِمالاً، فإذا فعل طاعةً رجا ما عند الله من الرحمة، وإذا أراد أن يفعل المعصية خاف من عذاب الله فحمله ذلك الخوف على ترك معصية الله، وهذا في حال صحته وأما في حال مرضه فيُغلِّب جانب الرجاء، ونحن مأمورون بذلك جاء عن جابر بن عبد

---

(١) [انتهى من المدارج (٢/٣٧)].

(٢) [المدارج **(٢/٣٧)**].

الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفاته بثلاثة أيام يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسنُ الظن بالله** [(١)] ».

وجاء عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**دخل على شاب وهو في الموت، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف** [(٢)] ».

فهذا هو ضابط الخوف الرجاء فإن زاد الخوف أو الرجاء عن حده تضرر منه العبد ولذلك نبه الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك في البيت الذي يليه فقال:

٢٣٤ والْخَوْفُ إنْ زادَ أفْضَى لِلْقُنُوطِ كَمَا يُفْضِي الرَّجاءُ لأَمْنِ الْمَكْرِ والنِّقَمِ

الشرح

لما ذكر الخوف المحمود نبه على أن الخوف إذا زاد عن حده صار خوفاً مذموماً وحمل صاحبه على اليأس والقنوط من رحمة الله، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد ذكر الحافظ في كتابه "الزواجر عن

---

(١) [رواه مسلم برقم (٢٨٧٧)].

(٢) رواه الترمذي برقم (٩٨٣) وابن ماجه برقم (٤٢٦١)، وسنده حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٠٥١).

اقتراف الكبائر": أن القنوط من رحمة الله من الكبائر، واستدل بقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

قلتُ: فالقنوط من رحمة الله من الكبائر بلا أدنى مرية، **فقد جاء عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أن رجلاً قال: «يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله** [(١)] **»**.

وجاء عن فضالة بن عبيد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ثلاثةٌ لا تسأل عنهم: رجل نازع الله عز وجل رداءه، فإن رداءه الكبرياء، وإزاره العزة، ورجلٌ شك في أمر الله، والقنوط من رحمة الله** [(٢)] **»**.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٣٥	فَلا تُفَرِّطْ ولا تُفْرِطْ وكُنْ وَسَطًا	وَمِثْلَ مَا أَمَرَ الرَّحْمَنُ فاسْتَقِمِ

الشرح

الأولى: (تُفَرِّط) بتشديد الراء من التفريط وهو التقصير فيه والتضييع له، **والثانية:** (تُفرِط) بكسرها من الإفراط وهو مجاوزة الحد والزيادة فيه.

---

(١) وسنده حسن، رواه البزار كما في "كشف الأستار" برقم: (١٠٦)، وقد حسنه العلامة الألبان في الصحيحة برقم: (٢٠٥١).

(٢) رواه أحمد برقم (٢٣٩٤٣) وسنده صحيح وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (٥٤٢) والعلامة الوادعي في "الصحيح المسند" برقم (١٠٥٩).

وقوله: (وكُنْ وَسَطًا) في كل الأمور وفي كل شيء، وإياك من الإفراط أو التَّفريط؛ لأن هذه الأمة أمة وسطية، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه. وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط.

والآفات إنما ينتظرون إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها[(١)]. اهـ

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: خير الأمور أوساطها [(٢)]. اهـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٣٦	سَـدِّدْ وقـارِبْ وأَبْشِـرْ واسْـتَعِنْ	والـرّواحِ وأَدْلِـجْ قاصِـدًا ودُمِ

الشرح

السداد: هو القصد في الأمر والإتيان بالعمل على الوجه الأكمل، وجاء عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل: اللّٰهم إني أسألك الهدى والسداد** [(٣)]».

---

(١) ورد حديث في السنن الكبرى للبيهقي برقم (٦١٠٢) عن عمرو بن الحارث قال: بلغني أن رسول الله.... قال: أمراً بين أمرين، وخير الأمور أوساطها وهو معضل كما ترى فإن عمرو بن الحارث من أتباع التابعين و ضعفه العلامة الألباني في الضعيفة برقم (٧٠٥٦).

(٢) [أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٥١٢٨) والبيهقي في الشعب برقم (٦١٧٦) وسنده صحيح].

(٣) [رواه مسلم برقم (٢٧٢٥)].

وقوله: (وقارِبْ) والمقاربة الإتيان بالعمل على ما يقارب الوجه الأكمل.

وقوله: (وأَبْشِرْ) أي: إذا أنتم أصبتم أو قاربتم فابشروا بالخير الثواب الجزيل

وقوله: (واسْتَعِنْ بِغُدوٍ) الغَدوة بالفتح سير أول النهار ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

وقوله: (والرّواحِ) والرَوحة بالفتح السير آخر النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦].

قال الحافظ في "الفتح" (٢/ ١٤٨): وقد يستعملان في كل ذهاب ورجوع توسعاً. ا هـ ومن هذا الباب قول النبي ﷺ: **«من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نزلاً، كلما غدا، أو راح** [(١)] **»**.

قوله: (وأَدْلِجْ) والدُّلْجة سير آخر الليل.

وقوله: (قَاصِداً) **والقصد** هو الأخذ بالأمر الأوسط، **قال ابن مسعود** رضي الله عنه: **اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة** [(٢)]. ا هـ

---

(١) [رواه البخاري برقم (٦٦٢) ومسلم برقم (٦٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) [أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٠) وابن بطة في الإبانة برقم (٢٤٧) وهو أثر صحيح].

وقوله: (وَدُمِ) أي: داوم على هذه الوصايا إلى أن يأتيك الموت: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، وقد جمع الله تعالى هذه الأوقات في قوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان:٢٥.٢٦]،

وأوصى بهذه الوصايا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد جمعها في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**» [(١)].

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٣٧	فمِثْل ما خَانَتِ الكسْلانَ هِمَّتُهُ	فَطَالَمَا حُرِمَ المُنْبَتُّ بالسَّأَمِ

الشرح

حذر الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه البيت من صنفين:

الصنف الأول: الكسلان الذي خانه كسله وفرط في الخيرات وفي الطاعات، وارتكب بعض المحرمات، ويتمنى على الله الأماني، وعنده همة عالية أنه سيصل إلى منازل المقربين، وهو على هذا الحال، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله من الكسل، في كل صباح ومساء كما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [(٢)] .

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٩)، وللحافظ ابن رجب رسالة بعنوان المحجة في سير الدلجة وهي في ضمن مجموع رسائله (٤/ ٣٩١).

(٢) [أخرجه مسلم برقم: (٢٧٢٣)].

قال المناوي: الكسل عما لا ينبغي التغافل عنه ولذلك عد مذموماً. اهـ

والكسل: صفة ذميمة من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

الصنف الثاني: المِلِل الذي يُقبل على العمل فيعمل قليلاً، ثم سُرعان ما يملُّ ويترك العمل، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[1].

وقوله: (المُنْبَتُّ) من بَتَّ الشيء يبته ويبته: قطعه، والمنبت: المنقطع في وسط الطريق.

وقوله: (بالسَّأَمِ) من السآمة وهي المَلَل والضجر كما في "لسان العرب".

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

٢٣٨	ودُمْ عَلى البَاقِياتِ الصَّالِحاتِ وحَوْ	قِلَنْ واسْأَلِ اللهَ رِزْقًا حُسْنَ مُخْتَتَمِ

الشرح

أي: داوم وحافظ على الباقيات الصالحات، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦]، والباقيات الصالحات هي: أنواع الطاعات والقربات، وعلى رأسها سبحان الله والحمد لله

---

(١) [رواه البخاري برقم (٦٤٦٤) ومسلم برقم (٢٨١٨)] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسميت بالباقيات؛ لأنه يبقى ثوابها مدخراً إلى يوم القيامة، جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر من الباقيات الصالحات**»، أخرجه ابن جرير في تفسيره، عند قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦] (١) .

وقوله: (وحوقلن) الحوقلة هي: قول (**لا حول ولا قوة إلا بالله**) أي: لا تحول من حال إلى حال ولا حصول قوةٍ للعبد على القيام بأي أمر من الأمور ولا على ترك نهي من النواهي إلا بالله، قال شيخ الإسلام: وقول (**لا حول ولا قوة إلا بالله**)، يوجب الإعانة؛ ولهذا سنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال المؤذن: «**حي على الصلاة، فيقول: المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا قال: حي على الفلاح قال المجيب: لا حول ولا قوة إلا بالله**»، وقال المؤمن لصاحبه: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [الكهف:٣٩]، ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء. فقوله: (مَا شَاءَ اللهُ) تقديره: ما شاء الله كان، فلا يأمن؛ بل يؤمن بالقدر. ويقول: لا قوة إلا بالله (٢) . اهـ

---

(١) وسنده حسن، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم (٣٢٦٤).

(٢) [مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢٠)].

قلتُ: فهي كلمةُ استعانة وتفويض الأمر لله واعتراف من العبد بفقره وحاجته إلى ربه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الوابل الصيب": وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة وتحمل المشاق. اهـ

فيُشرع أن تقال إذا قال المؤذن: حي على الصلاة، حي على الفلاح، كما في مسلم برقم (٣٨٥) عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، وتقال بعد الصلاة جاء عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رواه مسلم برقم (٥٩٤) وتقال إذا رأى الإنسان شيئًا فأعجبه، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [الكهف:٣٩]، وتقال: عند الخروج من البيت، جاء في الترمذي عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن

ومن فضائلها:

١ - أنها كنز من كنوز الجنة: جاء عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: **«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى، يا رسول الله قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله** [(١)] **»**.

---

(١) [رواه البخاري برقم (٤٢٠٥) ومسلم برقم (٢٧٠٤)].

وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه** [(١)] **»**.

٢ـ **أنها بابٌ من أبواب الجنة:** قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**» [(٢)].

٣ـ **أنها من أحب الكلام إلى الله:** قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أحب الكلام إلى الله: سبحان الله لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله سبحان الله وبحمده** [(٣)] **»**.

٤ـ **أنها من أسباب تكفير الذنوب:** قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**ما على الأرض أحد يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إلا كفرت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر** [(٤)] **»**.

---

(١) رواه أحمد برقم: (٨٠٨٥)، وقد صححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (١٣٥١).

(٢) **حسن**. أخرجه أحمد برقم (١٥٤٨٠) عن قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شاهد عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه أحمد برقم (٢١٩٩٦) فيه انقطاع، وله شواهد أخرى فالحديث حسن بشواهده وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٧٤٦).

(٣) رواه البخاري في "الأدب المفرد" برقم (٦٣٨) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٤) رواه الترمذي برقم: (٣٤٦٠) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو حديث حسن.

٥ـ **أنه إذا قالها العبد فإن الله يُصدِّقه:** جاء عن أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما شهدا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر، قال: يقول الله عز وجل: صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال العبد: لا إله إلا الله وحده، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك، وله الحمد، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: صدق عبدي لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي**»، قال أبو إسحق: ثم قال الأغر شيئا لم أفهمه، قال فقلت لأبي جعفر ما قال؟ فقال: «**من رزقهن عند موته لم تمسه النار** [(١)] ».

٦ـ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أصحابه أن يقولها، وأن يكثروا من ذكرها جاء عن سعد بن أبي وقاص قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**علمني كلاما أقوله، قال: قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟ قال: قل: اللّهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني** [(٢)] »،

---

(١) [رواه ابن ماجه برقم (٣٧٩٤) وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (١٣٩٠) والعلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم (٤٣٣-١٤٣٤)].

(٢) رواه مسلم برقم (٢٦٩٦).

وجاء أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: «**وأوصاني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة** [١] ».

وجاء عن حازم بن حرملة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مررت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي: «**يا حازم أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة** [٢] ».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة** [٣] ».

ومن المفاهيم الخاطئة: أن من الناس يُخطئ في استعمال هذه الكلمة في غير موضعها، فيستعملها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، **قال شيخ الإسلام**: ذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة؛ لا كلمة استرجاع وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع ويقولها جزعا لا صبرا [٤] . اهـ

فهي كلمة عظيمة تتضمن الإيمان بالقضاء والقدر، ولهذا ترجم لها الإمام البخاري في "صحيحه" في كتاب القدر (باب لا حول ولا قوة إلا بالله) وفيها

---

(١) [رواه أحمد برقم **(٢١٤١٥)** وهو حديث صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في "السلسلة الصحيحة" **(٢١٦٦)**، والعلامة الوادعي في "الصحيح المسند" برقم **(٢٦٧)**].

(٢) [رواه ابن ماجه برقم **(٣٨٢٦)**، وهو حديث صحيح وقد صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم **(٧٩٠٧)**].

(٣) [رواه أحمد برقم **(٨٤٠٦)** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث حسن بشواهده، وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم **(١٥٢٨)**].

(٤) [مجموع الفتاوى: **(١٠/٦٨٦)**].

معنى الدعاء، الذي هو روح العبادةِ ولبُّها، وقد ذكر البخاري في "صحيحه" في كتاب الدعوات باباً بعنوان (باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله).

وقوله: (**واسْأَلِ اللهَ رِزْقًا حُسْنَ مُخْتَتَمٍ**) أي: اسأل الله أن يرزقك حسن الخاتمة دائماً وأبداً، فإن حسن الخاتمة رزق، فالمؤمن يخافُ على نفسه من سوء الخاتمة؛ لأن الأعمال بالخواتيم كما في البخاري، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فالموت أمر محتمٌ لا بد منه، لكن ما ندري كيف سيُختمُ لنا، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين [(١)] . اهـ

وعند أن يقرأ العبد في سير السلف، وكيف ماتوا يعلم أن الله قد وفقهم لحسن الخاتمة نحسبهم كذلك والله حسيبهم، فهذا أبو ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينما هو يصلي في جوف الليل، قبض وهو ساجد، فرأت بنته أن أباها قد مات، فاستيقظت فزعة، فنادت أمها: أين أبي. قالت: في مصلاه، فنادته، فلم يجبها، فأنبهته، فوجدته ميتاً [(٢)] . اهـ

وزرارة بن أوفى رَحِمَهُ اللَّهُ قال الذهبي عنه في السير (٤/٥١٦): صح أنه قرأ في صلاة الفجر، فلما قرأ: فإذا نقر في الناقور خر ميتاً وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين. اهـ

---

(١) [الجواب الكافي (٩٢)].

(٢) [السير (٢/ ٥٧٠- ٥٧١)].

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الذي اشترى نفسه من الله ست مرات يعني: يتصدق كل مرة بديته. فلما سمع المؤذن فقال: خوذا بيدي فقيل: أنك عليل قال: أسمع داعي الله، فلا أجيبه فأخذوا بيده، فدخل مع الإمام في المغرب، فركع ركعة، ثم مات [(١)]، ومحمد بن شجاع الثلجي البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفي وهو ساجد [(٢)]، وعبد العزيز بن أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات وهو ساجد كما في ترجمته [(٣)] ، وسعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يموت وهو يقول: لا إله إلا الله كما [في السير (٤/٣٣٥)]، وهكذا أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما [في السير (١٣/٧٦)]، وكم من هذه القصص التي فيها حسن الخاتمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٣٩	واضْرَعْ إلى اللهِ في التَّوْفِيقِ مُبْتَهِلاً	فَهو المُجِيبُ وأهْلُ المَنِّ والكَرَمِ

الشرح

ما أحوج الإنسان أن يتضرع إلى الله، وأن يتذلل بين يديه، ففيه صلاح دنياهم وأخراهم قال: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا

---

(١) [انظر السير (٥/٢٢٠)].

(٢) [كما في السير (١٢/٣٨٠)].

(٣) [من السير (٨/٣٦٣)].

﴿تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فتضرعْ لخالقك، واسأله التوفيق لما يكون سببًا في سعادتك في الدنيا والآخرة، فإن التوفيق بيده سبحانه، قال تعالى عن شعيب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه التوفيق، فكان إذا رأى الهلال، قال: «**الله أكبر، اللّهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله**»[(١)].

فينبغي على العبد أن يستشعر أن ما يقوم به من أعمال الخير ومن الطاعات أن هذا بتوفيق الله له، وإذا لم يوفقه الله فهو مخذول كما قيل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولُ ما يجني عليه اجتهاده

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد أجمع العارفون بالله: أن التوفيق هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك [(٢)]. ا هـ

وقوله: (فَهو المُجِيبُ) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

---

(١) حسن بشواهده. أخرجه الدارمي برقم: (١٧٢٩)، وابن حبان برقم: (٨٨٨)، والطبراني في "الكبير" برقم: (١٣٣٣٠)، عن ابن عمر مرفوعًا به وله شواهد يحسن بها فالحديث حسن بشواهده وقد حسنه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (١٨١٦).

(٢) [مدارج السالكين (١/ ٤١٥)].

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، فإذا ترك العبد سؤال ربه غضب عليه، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «من لم يسأل الله يغضب عليه» (١) .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا يدلُ على أن رضاءه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى، فكل خير في رضاه كما أن كل بلا ومصيبة في غضبه (٢) . ا هـ

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقبيحٌ بالعبد المريد أن يتعرض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريده (٣) . ا هـ

وما أجمل تلك الأبيات (٤) :

لا تسألــنَّ بني آدم حاجــة ... وسل الذي أبوابه لا تحجبُ

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

وقوله: (وأَهْلُ المَنِّ والْكَرَمِ) أي: فهو سبحانه أهل المنّ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

---

(١) حديث حسن. رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٦٥٨) والترمذي برقم (٣٣٧٣) عن أبي هريرة وهو حديث حسن وقد حسنه العلامة الألباني في الصحيحة برقم (٢٦٥٤).

(٢) [الجواب الكافي: (١٨)].

(٣) [المدارج (٢/ ١٣١)].

(٤) في مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١٢٦) نسبها ابن رجب إلى أبي العتاهية وذكر بيتاً بعد لأبي العتاهية: فاجعل سؤالك للإله فإنما... في فضل نعمة ربنا نتقلبُ. وفي العزلة للخطابي (٦٦) قال: قال أبو سليمان أنشدني الخزيمي: فذكره.ا هـ

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهل ينقلب أحد قط إلا في منته؟ [(١)] .ا هـ

ومن أسماء الله المنان كما في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الترمذي وغيره، ومن منته علينا: أن منّ علينا ببعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وهو أهل الكرم، وهو أكرمُ الأكرمين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق:٣]، فمن أسماء الله الكريم والأكرم والكريم، هو اسم جامع لكل ما يحمد، فالله عز وجل كريمُ الفعال.

والأكرم، كما قال السعدي رحمه الله هو: كثير الكرم والإحسان، واسع الجود.ا هـ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٠	يـا رَبِّ يـا حـيُّ يـا قيـومُ مَغْفِـرَةً	لِمَا جَنَيْتُ مِنَ العِصْيانِ واللَّمَمِ

الشرح

أي: يا الله يا من أنت حي لا يموت يا قيوم السموات والأرض أسألك مغفرة، لما ارتكبت من الذنوب كبارها وصغارها، ومعنى المغفرة: مغفرة الذنوب وسترها، فهو سبحانه وتعالى أهل المغفرة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ

---

(١) [المدارج: (١/١١٥)].

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

قال القرطبي في "تفسيره" (٤/ ٣١٨): وقال جعفر الصادق: من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد قيل: وكيف ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم: الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم إلى قوله: إنك لا تخلف الميعاد. اهـ

قلتُ: يُرجى لمن ألح على ربه أن يستجيب له إن توفرت شروط الدعاء وانتفت الموانع وهذا التخصيص أن يقول: يا رب يا رب خمس مرات لم يثبت عن نبينا ﷺ ولا عن الصحابة وهم أحرصُ منا على الخير، وإنما هو استنباطٌ من بعض أهل العلم من الآيات الأُخريات في سورة آل عمران؛ لأنها عقبت بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥] الآية، والله أعلم وبه التوفيق والسداد .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤١	وامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا يُرْضيكَ واقْضِهِ لِي	مِنِ اعْتِقادٍ ومِنْ فِعْلٍ ومِنْ كَلِمِ

الشرح

أي: مُنَّ علي يا رب بما يُرضيك من اعتقاد صحيح وأقوال طيبة وأفعال صالحة ترضى بها عني في الدنيا والآخرة، فإن رضوان الله هو أكبر شيء يتحصل

عليه العبد المسلم، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢]، فلا يستوي من اتبع رضوان الله ومن اتبع سخطه، قال سبحانه: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:١٦٢].

قال ابن كثر في "تفسيره": أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله، فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله، وألزم به فلا محيد له عنه. ا هـ

فينبغي على العبد أن يسعى في مرضات الله، ولو سخط عليه الناس، قال رسول الله ﷺ قال: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس** [(١)] ».

وما أحسن ما قيل:

فليرض عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

---

(١) رواه ابن حبان برقم: (٢٧٧)، عن عائشة رضي الله عنها وهو حديث صحيح، وقد صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" برقم: (٢٣١١).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٢	وأَعْـلِ دينَكَ وانْصُـرْ ناصِريـهِ كَـمَا	وَعَدْتَهُمْ ربَّنا فِي أَصْدَقِ الكَلِمِ

الشرح

هذا دعاء من الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يسأل ربه أن ينصر هذا الدين وأن يُعلِيَ كلمته، **فالأعلَون** هم المؤمنون المتمسكون بهذا الدين فإن من تمسك به رفعه الله، قال تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقال: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٥]، ومن أسماء الله تعالى (الأعلى) قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى:١] وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في سجوده: (**سبحان ربي الأعلى**)، كما في مسلم برقم(٧٧٢) عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، فمن حقق العبودية لله تعالى رفع الله وأعلاه على أعدائه، قال تعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ [طه:٦٨].

وقوله: (**وانْصُرْ ناصِريهِ كَمَا.. وَعَدْتَهُمْ ربَّنا فِي أَصْدَقِ الكَلِمِ**) أي: انصر من نصر هذا الدين كما وعدت في كتابك الكريم الذي هو أصدق الكلام: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢] بقولك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧]، وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١]، وقال: ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١]، فمن نصره الله فهو الغالب والمنتصر، قال سبحانه: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٠]، وقال: ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الصافات:١١٦]، فمادة النصر والتمكين من الله: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:١٠].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٣	واقسِمْ ببَأْسِكَ رَبِّي حِزْبَ خاذِلِهِ	ورُدَّ كَيْدَ الأعادِي فِي نُحُورِهِمِ

الشرح

وهذا دعاء على من عادى هذا الدين وخذله بالهلاك، وما من قرية ظالمة أعرضت عن هذا الدين إلا قصمها الله وأهلكها ودمرها تدميرا قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء:١١].

قال القرطبي في تفسيره: والقصم الكسر، يقال: قصمت ظهر فلان وانقصمت سنه إذا انكسرت، والمعنى به هاهنا الإهلاك .اهـ

فمن خذل هذا الدين فهو المغلوب والهلاك عليه لا محالة؛ لأنه من حزب الشيطان وهو من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩].

وقوله: (ورُدَّ كَيْدَ الأعادِي فِي نُحُورِهِمِ) أي: اجعل كيد الأعداء مقابل صدورهم لتدفعهم عنا وتنصرنا عليهم وتوقع فيهم الهزيمة والنكال وخص النحر؛ لأن الأعداء يقابلونهم بوجوههم ونحورهم بخلاف المدبر والمولي، فإنه يكون هاربًا، والله أعلم.

قال المناوي: خص النحر؛ لأنه أسرع وأقوى في الدفع والتمكن من المدفوع، والعدو إنما يستقبل بنحره عن المناهضة للقتال أو للتفاؤل بنحرهم أو قتلهم، والمراد: نسألك أن تصد صدورهم وتدفع شرورهم وتكفينا أمورهم، وتحول بيننا وبينهم [(١)] .اهـ

---

(١) [فيض القدير (٥/١٢١)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٤	واشْـدُدْ عَلـيْهِمْ بِزلْـزَالٍ ودَمْدَمَـةٍ	كَمَا فَعَلْتَ بأَهْلِ الْحِجْرِ فِي القِدَمِ

الشرح

أي: أهلكم ودمرهم وانتقم منهم بزلزال قوية ودمدمة كما دمدمت على قوم صالح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس:١٤]، **قال القرطبي في "تفسيره":** أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب والعقر. اهـ

وأصحاب الحجر هم قوم ثمود أرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر:٨٠]، وفي هذه الآية دليل على أن من كذب برسول واحد فقد كذب بجميع المرسلين، وفي حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مر بالحجر، قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم** [1] ».

---

(١) [رواه البخاري برقم (٣٣٨٠) ومسلم برقم (٢٩٨٠)].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٥	واجْعَلْهُمُ رَبَّنا لِلْخَلْقِ مَوْعِظَةً	وعِبْرَةً يا شَدِيدَ البَطْشِ والنِّقَمِ

الشرح

أي: اجعل أعداء الدين وخاذليه موعظة وعبرة للخلق كلهم مما حل بهم من الهلاك والعذاب يا شديد البطش والانتقام والبطش بمعنى الأخذ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]، قال ابن كثير في "تفسيره" عند هذه الآية: أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله، وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي.ا هـ

فالله يُمهل ولا يُهمل ثم ينتقم من المجرمين، قال سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان:١٦]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، فهو شديد العقاب والانتقام على من يستحق ذلك كما، قال سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣]، ولما بعث الله لوطاً إلى قومه خوف قومه وأنذرهم من بطش الله قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٦	ثم الصَّلاةُ عَلى الْمَعْصومِ مِنْ خَطَإٍ	مُحَمَّدٍ خَيْرِ رُسْلِ اللهِ كُلِّهِمِ

الشرح

ثم ختم النظم بالصلاة على النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو خير الرسل وخير الخلق على الإطلاق قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**»[1].

وقوله: (**عَلى الْمَعْصومِ مِنْ خَطَإٍ**) مسألة: هل يجوز وقع الذنوب من الأنبياء؟

والجواب: هذا فيه تفصيل: أما ما يتعلق بالرسالة فهم معصومون من الخطأ بإجماع الأمة، وأما في غير جانب الوحي فإنهم أيضًا معصومون من الكبائر بالإجماع، نقله ابن بطال والقرطبي والشاطبي، والحافظ ابن حجر.

واختلفوا في عصمتهم من الصغائر؟ والراجح من قولي أهل العلم وهو قول الجمهور أنهم معصومون من الصغائر الخسة دون غيرها من الصغائر، ومع ذلك لو وقع منهم شيء لا يقرون عليها، بل إنهم يتداركون ذلك بالتوبة والإنابة، فتكون سببًا في رفع درجاتهم، كما قال تعالى عن آدم: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، وقال تعالى عن موسى لما قتل نفسًا ولم

---

(١) رواه مسلم برقم: (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

يكن متعمدًا، قتلها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص:١٦]، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١-٢].

فأثبت له ذنبًا، ورجح هذا القول الطبري وابن بطال والآمدي والقرطبي صاحب المفهم، وشيخ الإسلام والحافظ، ومال إليه الشوكاني، واختاره العلامة الشنقيطي، وابن باز وابن عثيمين وشيخنا العلامة يحيى الحجوري حفظه الله.

قال الإمام القرطبي في "المفهم" (١/ ٥٨): والقول الوسط في ذلك أن الله تعالى، قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها واستغفروا وتابوا. وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويلات بجملتها، وإن قبل ذلك آحادها.

لكن الذي ينبغي أن يقال: إن الذي أضيف إليهم من الذنوب ليس من قبيل الكبائر ولا مما يزري بمناصبهم على ما تقدم ، ولا كثر منهم وقوع ذلك، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم وعوتبوا عليها يخف أمرها بالنسبة إلى غيرهم، وإنما عدت عليهم وعوتبوا عليها بالنسبة إلى مناصبهم وإلى علو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس[(١)]. اهـ

---

(١) راجع شرح ابن بطال لصحيح البخاري: (١٠/٤٣٩)، والأحكام (١/١١١)، تفسير القرطبي: (١/٣٠٨-٣٠٩)، والموافقات: (٤/١٣)، مجموع الفتاوى: (٤/٣١٩- ٣٢٠)، والفتح: (٨/٦٩)، ونيل الأوطار: (٢/٣٤١)، وأضواء البيان: (٤/١١٩)، ومجموع فتاوى ابن باز: (٦/٢٩٠)، والشرح الممتع: (٣/٥١- ٥٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

٢٤٧	والآلِ والصَّحْبِ ثمَّ التابعينَ لَهُمْ	وتَمَّ نَظْمِي بِحَمْدِ اللهِ ذِي النِّعَمِ

الشرح

ثم لما ختم بالصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطف بالصلاة على الآل والصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وقد تقدم الكلام على ذلك في أول المنظومة.

وقوله: (وتَمَّ نَظْمِي بِحَمْدِ اللهِ ذِي النِّعَمِ) أي: كما بدأتُ نظمي بالحمد لله، فها قد تم نظمي بحمد لله فهو أهل الحمد والنعم فالنعم كلُّها منه، سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل:٥٣].

كان الانتهاء من ذلك يوم الثلاثاء العاشر السادس من ذي القعدة لعام: (١٤٤٢)، من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كتبه/ أبو لقمان هاشم بن حسن بن عبده القرشي

غفر الله له ولوالديه والمسلمين.

الفهرس

مقدمة الشارح ٣
ترجمة صاحب المنظومة ٤
شرح المقدمة ٥
فضل العلم الشرعي وخطر الجهل به ١٦
نبذة في وصية طالب العلم ٧٨
الوصية بكتاب الله عز وجل ١١٠
الوصية بالسنة ١٥٢
فصلٌ: في الفرائض والآلة والتحذير من العلوم المبتدعة ١٨١
خاتمة: في تحصيلِ ثَمَرَاتِ العِلْمِ النافِعَةِ واجْتِناءِ قُطوفِهِ الدَّانِيَةِ اليانِعَة ٢١٢
الفهرس ٢٧٨